

سورة القصص

طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)

مقدمة القصص هذه السورة مكية , نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة , والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان . نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم , نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود , هي قوة الله ; وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون , هي قيمة الإيمان . فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه , ولو كان مجردا من كل مظاهر القوة , ومن كانت قوة الله عليه فلا أمن له ولا طمأنينة ولو ساندته جميع القوى ; ومن كانت له قيمة الإيمان فله الخير كله , ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا .

ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء , وقصة قارون مع قومه - قوم موسى - في الختام . . الأولى تعرض قوة الحكم والسلطان . قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ; وفي مواجعتها موسى طفلا رضيعا لا حول له ولا قوة , ولا ملجأ له ولا وقاية . وقد علا فرعون في الأرض , واتخذ أهلها شيعا , واستضعف بني إسرائيل , يذبح أبناءهم , ويستحيي نساءهم , وهو على حذر منهم , وهو قابض على أعناقهم . ولكن قوة فرعون وجبروته , وحذره ويقظته , لا تغني عنه شيئا ; بل لا تمكن له من موسى الطفل الصغير , المجرد من كل قوة وحيلة , وهو في حراسة القوة الحقيقية الوحيدة ترعاه عين العناية , وتدفع عنه السوء , وتعمي عنه العيون , وتتحدى به فرعون وجنده تحديا سافرا , فتدفع به إلى حجره , وتدخل به عليه عرينه , بل تقتحم به عليه قلب امرأته وهو مكتوف اليدين إزاءه , مكفوف الأذى عنه , يصنع بنفسه لنفسه ما يحذره ويخشاه !

والقصة الثانية تعرض قيمة المال , ومعها قيمة العلم . المال الذي يستخف القوم وقد خرج عليهم قارون في زينته , وهم يعلمون أنه أوتي من المال ما إن مفاتحه لتعني العصبة من الرجال الأقوياء . والعلم الذي يعتز به قارون , ويحسب أنه بسببه وعن طريقه أوتي ذلك المال . ولكن الذين أوتوا العلم الصحيح من قومه لا تستخفهم خزائنه , ولا تستخفهم زينته ; بل يتطلعون إلى ثواب الله , ويعلمون أنه خير وأبقى . ثم تتدخل يد الله فتحسف به وبداره الأرض , لا يغني عنه ماله ولا يغني عنه علمه ; وتتدخل تدخلا مباشرا سافرا كما تدخلت في أمر فرعون , فألقته في اليم هو وجنوده فكان من المغرقين .

لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان ; ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال . وكانت النهاية واحدة , هذا خسف به وبداره , وذلك أخذه اليم هو وجنوده . ولم تكن هنالك قوة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة . إنما تدخلت يد القدرة سافرة فوضعت حدا للبغي والفساد , حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد .

ودلت هذه وتلك على أنه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا ; ويخشى من الفتنة بالباس والفتنة بالمال . عندئذ تتدخل يد القدرة سافرة متحدية , بلا ستار من الخلق , ولا سبب من قوى الأرض , لتضع حد للشر والفساد .

وبين القصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فيها بدلالة القصص - في سورة القصص - ويفتح أبصارهم على آيات الله الماثلة في مشاهد الكون تارة , وفي مصارع الغابرين تارة , وفي مشاهد القيامة تارة . . وكلها تؤكد العبر المستفادة من القصص , وتساوقها وتتناسق معها ; وتؤكد سنة الله التي لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان . وقد قال المشركون لرسول الله [ص] : " إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا " . فاعتذروا عن عدم اتباعهم الهدى بخوفهم من تخطف الناس لهم , لو تحولوا عن عقائدهم القديمة التي من أجلها يخضع الناس لهم , ويعظمون البيت الحرام ويدينون للقائمين عليه .

فساق الله إليهم في هذه السورة قصة موسى وفرعون , تبين لهم أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ; وتعلمهم أن الأمن إنما يكون في جوار الله , ولو فقدت كل أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ; وأن الخوف إنما يكون في البعد عن ذلك الجوار ولو تظاهرت أسباب الأمن الظاهرة التي تعارف عليها الناس ! وساق لهم قصة قارون تقرر هذه الحقيقة في صورة أخرى وتؤكدها .

وعقب على مقالتهم (أو لم يمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون) . . يذكرهم بأنه هو الذي أمنهم من الخوف فهو الذي جعل لهم هذا الحرم الآمن ; وهو الذي يديم عليهم أمنهم , أو يسلبهم إياه ; ومضى ينذرهم عاقبة البطر وعدم الشكر: (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا , وكنا نحن الوارثين) .

وبخوفهم عاقبة أمرهم بعد أن أعذر إليهم وأرسل فيهم رسولا . وقد مضت سنة الله من قبل بإهلاك المكذبين بعد مجيء النذير: (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا , وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) .

ثم يعرض عليهم مشهدهم يوم القيامة حين يتخلى عنهم الشركاء على رؤوس الأشهاد ; فيبصرهم بعذاب الآخرة بعد أن حذرهم عذاب الدنيا ; وبعد أن علمهم أين يكون الخوف وأين يكون الأمان .

وتنتهي السورة بوعد من الله لرسوله الكريم وهو مخرج من مكة مطارداً من المشركين بأن الذي فرض عليه القرآن لينهض بتكاليفه , لا بد راده إلى بلده , ناصره على الشرك وأهله . وقد أنعم عليه بالرسالة ولم يكن يتطلع إليها ; وسينعم عليه بالنصر والعودة إلى البلد الذي أخرجه منه المشركون . سيعود آمناً ظافراً مؤيداً . وفي قصص السورة ما يضمن هذا ويؤكد . فقد عاد موسى - عليه السلام - إلى البلد الذي خرج منه خائفاً طريداً . عاد فأخرج معه بني إسرائيل واستنقذهم , وهلك فرعون وجنوده على أيدي موسى وقومه الناجين . .

ويختتم هذا الوعد ويختتم السورة معه بالإيقاع الأخير:

(ولا تدع مع الله إلهاً آخر , لا إله إلا هو , كل شيء هالك إلا وجهه , له الحكم , وإليه ترجعون) .

هذا هو موضوع السورة وجوها وظلالها العامة , فلنأخذ في تفصيل أشواطها الأربعة: قصة موسى . والتعقيب عليها . وقصة قارون . وهذا الوعد الأخير . . .

الدرس الأول: 1 - 6 طغيان فرعون وجو ولادة موسى

تبدأ السورة بالأحرف المقطعة:

طا . سين . ميم . . تلك آيات الكتاب المبين . .

تبدأ السورة بهذه الأحرف للتنبيه إلى أنه من مثلها تتألف آيات الكتاب المبين , البعيدة الرتبة , المتباعدة المدى بالقياس لما يتألف عادة من هذه الأحرف , في لغة البشر الفانين:

(تلك آيات الكتاب المبين). .

تَلُّوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

فهذا الكتاب المبين ليس إذن من عمل البشر , وهم لا يستطيعونه ; إنما هو الوحي الذي يتلوه الله على عبده , ويبدو فيه إعجاز صنعته , كما يبدو فيه طابع الحق المميز لهذه الصنعة في الكبير والصغير:

نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . .

فإلى القوم المؤمنين يوجه هذا الكتاب ; يريهم به وينشئهم ويرسم لهم المنهاج , وبشق لهم الطريق . وهذا القصص المتلو في السورة , مقصود به أولئك المؤمنين , وهم به ينتفعون .

وهذه التلاوة المباشرة من الله , تلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين ; وتشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة . وكيف ? والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم , ولهم ; بصفتهم هذه التي تؤهلهم لتلك العناية الكريمة: (لقوم يؤمنون).

وبعد هذا الافتتاح يبدأ في عرض النبأ . نبأ موسى وفرعون . يبدأ في عرضه منذ أول حلقة في القصة - حلقة ميلاده - ولا تبدأ مثل هذا البدء في أية سورة أخرى من السور الكثيرة التي وردت فيها . ذلك أن الحلقة الأولى من قصة موسى , والظروف القاسية التي ولد فيها ; وتجرده في طفولته من كل قوة ومن كل حيلة ; وضعف قومه واستذلالهم في يد فرعون . . ذلك كله هو الذي يؤدي هدف السورة الرئيسي ; ويبرز يد القدرة سافرة متحدية تعمل وحدها بدون ستار من البشر ; وتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر ; وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة ; وتمكن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية . وهو المعنى الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتشيته ; وكانت الكثرة المشتركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيقانه .

ولقد كانت قصة موسى - عليه السلام - تبدأ غالبا في السور الأخرى من حلقة الرسالة - لا من حلقة الميلاد - حيث يقف الإيمان القوي في وجه الطغيان الباغي ; ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية . فاما هنا فليس هذا المعنى هو المقصود ; إنما المقصود أن الشر حين يتمحض يحمل سبب هلاكه في ذاته ; والبغي حين يتمرّد لا يحتاج

إلى من يدفعه من البشر ؛ بل تتدخل يد القدرة وتأخذ بيد المستضعفين المعتدى عليهم ،
فتنقذهم وتستنقذ عناصر الخير فيهم ، وتربيهم ، وتجعلهم أئمة ، وتجعلهم الوارثين .

فهذا هو الغرض من سوق القصة في هذه السورة ؛ ومن ثم عرضت من الحلقة التي
تؤدي هذا الغرض وتبرزه ، والقصة في القرآن تخضع في طريقة عرضها للغرض المراد
من هذا العرض . فهي أداة تربية للنفوس ، ووسيلة تقرير لمعان وحقائق ومبادئ . وهي
تناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه ، وتتعاون في بناء القلوب ، وبناء الحقائق
التي تعمر هذه القلوب .

والحلقات المعروضة من القصة هنا هي: حلقة مولد موسى - عليه السلام - وما أحاط
بهذا المولد من ظروف قاسية في ظاهرها ، وما صاحبه من رعاية الله وعنايته . وحلقة
فتوته وما آتاه الله من الحكم والعلم ، وما وقع فيها من قتل القبطي ، وتأمر فرعون
وملئه عليه ، وهربه من مصر إلى أرض مدين ، وزواجه فيها ، وقضاء سنوات الخدمة بها
، وحلقة النداء والتكليف بالرسالة . ثم مواجهة فرعون وملئه وتكذيبهم لموسى وهارون
، والعاقبة الأخيرة - الفرق - مختصرة سريعة .

ولقد أطلال السياق في عرض الحلقة الأولى والحلقة الثانية - وهما الحلقتان الجديدتان
في القصة في هذه السورة - لأنهما تكشفان عن تحدي القدرة السافرة للطغيان الباغي
، وفيها يتجلى عجز قوة فرعون وحيلته وحذره عن دفع القدر المحتوم والقضاء النافذ:
(ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون).

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ
وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4)

وعلى طريقة القرآن في عرض القصة ، قسمها إلى مشاهد ؛ وجعل بينها فجوات فنية
يملؤها الخيال ، فلا يفوت القارئ شيء من الأحداث والمناظر المتروكة بين المشهد
والمشهد ، مع الاستمتاع الفني بحركة الخيال الحية .

وقد جاءت الحلقة الأولى في خمسة مشاهد . والحلقة الثانية في تسعة مشاهد والحلقة
الثالثة في أربعة مشاهد . وبين الحلقة والحلقة فجوة كبيرة أو صغيرة وبين كل مشهد
ومشهد ، كما يسدل الستار ويرفع عن المنظر أو المشهد .

وقبل أن يبدأ القصة يرسم الجو الذي تدور فيه الأحداث ، والظرف الذي يجري فيه
القصص ، ويكشف عن الغاية المخبوءة وراء الأحداث ، والتي من أجلها يسوق هذا
القصص . . وهي طريقة من طرق العرض القرآني للقصة . تساوق موضوعها وأهدافها
في هذا الموضع من القرآن:

إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ،
ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمّن على الذين استضعفوا في
الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ، ونري فرعون
وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . .

وهكذا يرسم المسرح الذي تجري فيه الحوادث , وتنكشف اليد التي تجربها . وتنكشف معها الغاية التي تتوخاها . وانكشف هذه اليد , وبروزها سافرة بلا ستار منذ اللحظة الأولى مقصود في سياق القصة كلها , متمش مع أبرز هدف لها . ومن ثم تبدأ القصة هذا البدء . وذلك من بدائع الأداء في هذا الكتاب العجيب .

ولا يعرف على وجه التحديد من هو الفرعون الذي تجري حوادث القصة في عهده , فالتحديد التاريخي ليس هدفا من أهداف القصة القرآنية ; ولا يزيد في دلالتها شيئا . ويكفي أن نعلم أن هذا كان بعد زمان يوسف - عليه السلام - الذي استقدم أباه وإخوته . وأبوه يعقوب هو "إسرائيل" وهؤلاء كانوا ذريته . وقد تكاثروا في مصر وأصبحوا شعبا كبيرا .

فلما كان ذلك الفرعون الطاغية (علا في الأرض) وتكبر وتجبر , وجعل أهل مصر شيعا , كل طائفة في شأن من شئونه . ووقع أشد الاضطهاد والبغي على بني إسرائيل , لأن لهم عقيدة غير عقيدته هو وقومه ; فهم يدينون بدين جدهم إبراهيم وأبيهم يعقوب ; ومهما يكن قد وقع في عقيدتهم من فساد وانحراف , فقد بقي لها أصل الاعتقاد بإله واحد ; وإنكار ألوهية فرعون والوثنية الفرعونية جميعا .

وكذلك أحس الطاغية أن هناك خطرا على عرشه وملكه من وجود هذه الطائفة في مصر ; ولم يكن يستطيع أن يطردهم منها وهم جماعة كبيرة أصبحت تعد مئات الألوف , فقد يصبحون إلبا عليه مع جيرانه الذين كانت تقوم بينهم وبين الفراعنة الحروب , فابتكر عندئذ طريقة جهنمية خبيثة للقضاء على الخطر الذي يتوقعه من هذه الطائفة التي لا تعبده ولا تعتقد بالوحيته , تلك هي تسخيرهم في الشاق الخطر من الأعمال , واستذلالهم وتعذيبهم بشتى أنواع العذاب . وبعد ذلك كله تذيب الذكور من أطفالهم عند ولادتهم , واستبقاء الإناث كي لا يتكاثر عدد الرجال فيهم . وبذلك يضعف قوتهم بنقص عدد الذكور وزيادة عدد الإناث , فوق ما يصبه عليهم من نكال وعذاب .

وروي أنه وكل بالحوامل من نسائهم قوالب مولدات يخبرنه بمواليد بني إسرائيل , ليبارر بذب الذكور , فور ولادتهم حسب خطته الجهنمية الخبيثة , التي لا تستشعر رحمة بأطفال أبرياء لا ذنب لهم ولا خطيئة .

هذه هي الظروف التي تجري فيها قصة موسى - عليه السلام - عند ولادته , كما وردت في هذه السورة:

وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5)
وَتُمْكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَتُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (6)

(إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا , يستضعف طائفة منهم يذب أبناءهم ويستحيي نساءهم . إنه كان من المفسدين) . .

ولكن الله يريد غير ما يريد فرعون ; ويقدر غير ما يقدر الطاغية . والطغاة البغاة تخذعهم قوتهم وسطوتهم وحيلتهم , فينسبون إرادة الله وتقديره ; ويحسبون أنهم يختارون لأنفسهم ما يحبون , ويختارون لأعدائهم ما يشاءون . ويطنون أنهم على هذا وذاك قادرون .

والله يعلن هنا إرادته هو , ويكشف عن تقديره هو ; ويتحدى فرعون وهامان وجنودهما , بأن احتياطهم وحذرهم لن يجديهم فتيلا:

(ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة , ونجعلهم الوارثين , ونمكن لهم في الأرض , ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون).

فهؤلاء المستضعفون الذين يتصرف الطاغية في شأنهم كما يريد له هواه البشع النكير , فيذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم , ويسومهم سوء العذاب والنكال . وهو مع ذلك يحذرهم ويخافهم على نفسه وملكه ; فيبث عليهم العيون والأرصاد , ويتعقب نسلهم من الذكور فيسلمهم إلى الشفار كالجزار ! هؤلاء المستضعفون يريد الله أن يمن عليهم بهباته من غير تحديد ; وأن يجعلهم أئمة وقادة لا عبيدا ولا تابعين ; وأن يورثهم الأرض المباركة [التي أعطاهم إياها عندما استحقوها بعد ذلك بالإيمان والصلاح] وأن يمكن لهم فيها فيجعلهم أقوياء راسخي الأقدام مطمئنين . وأن يحقق ما يحذره فرعون وهامان وجنودهما , وما يتخذون الحيطة دونه , وهم لا يشعرون !

هكذا يعلن السياق قبل أن يأخذ في عرض القصة ذاتها . يعلن واقع الحال , وما هو مقدر في المال . ليقف القوتين وجها لوجه: قوة فرعون المنتفشة المنتفخة التي تبدو للناس قادرة على الكثير . وقوة الله الحقيقية الهائلة التي تتهاوى دونها القوى الظاهرية الهزيلة التي ترهب الناس !

وبرسم بهذا الإعلان مسرح القصة قبل أن يبدأ في عرضها . والقلوب معلقة بأحداثها ومجرياتها , وما ستنتهي إليه , وكيف تصل إلى تلك النهاية التي أعلنها قبل البدء في عرضها .

ومن ثم تنبض القصة بالحياة ; وكأنها تعرض لأول مرة , على أنها رواية معروضة الفصول , لا حكاية غبرت في التاريخ . هذه ميزة طريقة الأداء القرآنية بوجه عام .

الدرس الثاني: 7 - 13 حفظ الله لموسى الرضيع وإعادته إلى أمه

ثم تبدأ القصة . ويبدأ التحدي وتنكشف يد القدرة تعمل سافرة بلا ستار:

لقد ولد موسى في ظل تلك الأوضاع القاسية التي رسمها قبل البدء في القصة ; ولد والخطر محقق به , والموت يتلفت عليه , والشفرة مشرعة على عنقه , تهم أن تحتز رأسه . .

وها هي ذي أمه حائرة به , خائفة عليه , تخشى أن يصل نبؤه إلى الجلادين , وترجف أن تتناول عنقه السكين ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة , عاجزة عن حمايته , عاجزة عن إخفائه , عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينم عليه ; عاجزة عن تلقينه حيلة أو وسيلة . . ها هي ذي وحدها ضعيفة عاجزة مسكينة .

هنا تتدخل يد القدرة , فتتصل بالأم الوجلة القلقة المذعورة , وتلقي في روعها كيف تعمل , وتوحي إليها بالتصرف:

(وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه , فإذا خفت عليه فألقيه في اليم , ولا تخافي ولا تحزني) . .

وَأَوْحَيْتَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي
إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا
إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (8) وَقَالَتْ أُمُّرَأْتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنِي لِي
وَلَكَّ لَا تَقْلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (9)

يا لله ! يا للقدرة ! يا أم موسى أرضعيه . فإذا خفت عليه وهو في حضنك . وهو في
رعايتك . إذا خفت عليه وفي فمه ثديك , وهو تحت عينيك . إذا خفت عليه (فألقيه في
اليم)!!

(ولا تخافي ولا تحزني) إنه هنا . . في اليم . . في رعاية اليد التي لا أمن إلا في جوارها ,
اليد التي لا خوف معها . اليد التي لا تقرب المخاوف من حماها . اليد التي تجعل النار
بردا وسلاما , وتجعل البحر ملجأ ومناما . اليد التي لا يجرؤ فرعون الطاغية الجبار ولا
جبابرة الأرض جميعا أن يدنوا من حماها الآمن العزيز الجناح .

(إننا رادوه إليك) . . فلا خوف على حياته ولا حزن على بعده . . (وجاعلوه من المرسلين).
وتلك بشارة الغد , ووعد الله أصدق القائلين .

هذا هو المشهد الأول في القصة . مشهد الأم الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة تتلقى
الإحياء المطمئن المبشر المثبت المريح . وينزل هذا الإحياء على القلب الواجب
المحرور بردا وسلاما . ولا يذكر السياق كيف تلقت أم موسى , ولا كيف نفذته . إنما
يسدل الستار عليها , ليرفعه فإذا نحن أمام المشهد الثاني:

(فالتقطه آل فرعون) . .

أهذا هو الأمن ؟ أهذا هو الوعد ؟ أهذه هي البشارة ؟

وهل كانت المسكينة تخشى عليه إلا من آل فرعون ؟ وهل كانت ترجف إلا أن ينكشف
أمره لآل فرعون ؟ وهل كانت تخاف إلا أن يقع في أيدي آل فرعون ؟

نعم ! ولكنها القدرة تتحدى تتحدى بطريقة سافرة مكشوفة . تتحدى فرعون وهامان
وجنودهما . إنهم ليتبعون الذكور من مواليد قوم موسى خوفا على ملكهم وعرشهم
وذواتهم . ويبشون العيون والأرصاد على قوم موسى كي لا يفلت منهم طفل ذكر . . .
فها هي يد القدرة تلقي في أيديهم بلا بحث ولا كد بطفل ذكر . وأي طفل ؟ إنه الطفل
الذي على يديه هلاكهم أجمعين ! ها هي ذي تلقيه في أيديهم مجردا من كل قوة ومن كل
حيلة , عاجزا عن أن يدفع عن نفسه أو حتى يستنجد ! ها هي ذي تقتحم به على فرعون
حصنه وهو الطاغية السفاح المتجبر , ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل ,
وفي أحضان نسائهم الوالدات !

ثم ها هي ذي تعلن عن مقصدها سافرة متحدية:

(ليكون لهم عدوا وحزنا).

ليكون لهم عدوا يتحداهم وحزنا يدخل الهم على قلوبهم:

(إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين). .

ولكن كيف ؟ كيف وها هو ذا بين أيديهم , مجردا من كل قوة , مجردا من كل حيلة ؟
لندع السياق يجيب:

وقالت امرأة فرعون: قرة عين لي ولك , لا تقتلوه , عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ; وهم
لا يشعرون . .

لقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته , بعد ما اقتحمت به عليه حصنه . لقد
حمته بالمحبة . ذلك الستار الرقيق الشفيف . لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال . حمته
بالحب الحاني في قلب امرأة . وتحدث به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره . .
وهان فرعون على الله أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف !

(قرة عين لي ولك). .

وهو الذي تدفع به يد القدرة إليهم ليكون لهم - فيما عدا المرأة - عدوا وحرنا ! (لا
تقتلوه). .

وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ (10) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11) وَحَرَّمْنَا
عَلَيْهِ الْمَرَاصِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12)

وهو الذي على يده مصرع فرعون وجنده !

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا). .

وهو الذي تخبئ لهم الأقدار من ورائه ما حذروا منه طويلا !

(وهم لا يشعرون). .

فيا للقدرة القادرة التي تتحداهم وتسخر منهم وهم لا يشعرون !

وبنتهي المشهد الثاني ويسدل الستار عليه إلى حين .

ذلك شأن موسى . فما بال أمه الوالهة وقلبها الملهوف ؟

(وأصبح فؤاد أم موسى فارغا . إن كادت لتبدي به . لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من
المؤمنين . وقالت لأخته: قصيه). .

لقد سمعت الإيحاء , وألقت بطفلها إلى الماء . ولكن أين هو يا تري وماذا فعلت به
الأمواج ؟ ولعلها سألت نفسها: كيف ؟ كيف أمنت على فلذة كبدي أن أقذف بها في اليم
؟ كيف فعلت ما لم تفعله من قبل أم ؟ كيف طلبت له السلامة في هذه المخافة ؟
وكيف استسلمت لذلك الهاتف الغريب ؟

والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد الأم المسكينة صورة حية: (فارغا). . لا عقل فيه ولا وعي ولا قدرة على نظر أو تصرف !

(إن كادت لتبدي به). . وتذيع أمرها في الناس , وتهتف كالمجنونة: أنا أضعته . أنا أضعت طفلي . أنا ألقيت به في اليم اتباعا لهاتف غريب !

(لولا أن ربطنا على قلبها). . وشددنا عليه وثبتناها , وأمسكنا بها من الهيام والشرود . (لتكون من المؤمنين). . المؤمنين بوعد الله , الصابرين على ابتلائه , السائرين على هداه .

ولم تسكت أم موسى عن البحث والمحاولة !

(وقالت لأخته: قصيه). . اتبعني أثره , واعرفني خبره , إن كان حيا , أو أكلته دواب البحر أو وحوش البر . . أو أين مقره ومرساه ؟

وذهبت أخته تقص أثره في حذر وخفية , وتتلمس خبره في الطرق والأسواق . فإذا بها تعرف أين ساقة القدرة التي ترعاه ; وتبصر به عن بعد في أيدي خدم فرعون يبحثون له عن ثدي للرضاع:

(فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل . فقالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟) . .

إن القدرة التي ترعاه تدبر أمره , وتكيد به لفرعون وآله ; فتجعلهم يلتقطونه , وتجعلهم يحبونه , وتجعلهم يبحثون له عن ظئر ترضعه , وتحرم عليه المراضع , لتدعهم يختارون به ; وهو يرفض الثدي كلما عرضت عليه , وهم يخشون عليه الموت أو الذبول ! حتى تبصر به أخته من بعيد , فتعرفه وتتيح لها القدرة فرصة لهفتهم على مرضع , فتقول لهم: (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون)؟ فيتلقفون كلماتها , وهم يستبشرون , يودون لو تصدق فينجو الطفل العزيز المحبوب !

وينتهي المشهد الرابع ; فنجدنا أمام المشهد الخامس والأخير في هذه الحلقة . وقد عاد الطفل الغائب لأمه الملهوفة . معافى في بدنه , مرموقا في مكانته , يحميه فرعون , وترعاه امرأته , وتضطرب المخاوف من حوله

فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14)

وهو آمن قرير . وقد صاغت يد القدرة الحلقة الأولى من تدبيرها العجيب:

فرددناه إلى أمه , كي تقر عينها ولا تحزن , ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . .

الدرس الثالث: 14 - 28 موسى من شبابه إلى نبوته

وبسكت سياق القصة بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى - عليه السلام - والحلقة التالية التي تمثل شبابه واكتماله . فلا نعلم ماذا كان بعد رده إلى أمه لترضعه . ولا كيف تربى في قصر فرعون . ولا كيف كانت صلته بأمه بعد فترة الرضاعة . ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شب وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية في الحلقة الثانية . ولا كيف كانت عقيدته , وهو الذي يصنع على عين الله , ويعد لوظيفته , في وسط عباد فرعون وكهنته . .

يسكت سياق القصة عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى , فقد آتاه الله الحكمة والعلم , وحزاه جزاء المحسنين:

(ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزي المحسنين). .

وبلوغ الأشد اكتمال القوى الجسمية . والاستواء اكتمال النضوج العضوي والعقلي . وهو يكون عادة حوالي سن الثلاثين . فهل ظل موسى في قصر فرعون , ربيبا ومتبنيا لفرعون وزوجه حتى بلغ هذه السن ؟ أم إنه افترق عنهما , واعتزل القصر , ولم تسترح نفسه للحياة في ظل تلك الأوضاع الآسنة التي لا تستريح لها نفس مصفاة مجتباة كنفس موسى - عليه السلام - ؟ وبخاصة أن أمه لا بد أن تكون قد عرفت من هو ومن قومه وما ديارته . وهو يرى كيف يسام قومه الخسف البشع والظلم الشنيع , والبغي اللئيم ; وهو يرى أبشع صورة للفساد الشائع الأثيم .

ليس لدينا من دليل . ولكن سياق الحوادث بعد هذا يلهم شيئا من هذا كما سيجيء ; والتعقيب على إتيانه الحكمة والعلم: (وكذلك نجزي المحسنين)يشي كذلك بأنه أحسن فأحسن الله إليه بالحكمة والعلم:

ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها , فوجد فيها رجلين يقتتلان: هذا من شيعته وهذا من عدوه ; فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ; فوكزه موسى فقضى عليه . قال: هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال: رب إنني ظلمت نفسي , فأغفر لي , فغفر له , إنه هو الغفور الرحيم . قال: رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين . .

ودخل المدينة . . والمفهوم أنها العاصمة وقتئذ . . فمن أي مكان جاء فدخلها ؟ وهل كان من القصر في عين شمس ؟ أم إنه كان قد اعتزل القصر والعاصمة , ثم دخل إليها على حين غفلة من أهلها , في وقت الظهيرة مثلا حين تغفو العيون ؟

لقد دخل المدينة على كل حال (فوجد فيها رجلين يقتتلان . هذا من شيعته وهذا من عدوه . فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه). .

وقد كان أحدهما قبطيا - يقال إنه من حاشية فرعون , ويقال إنه طباح القصر . والآخر إسرائيلي . وكانا يقتتلان . فاستغاث الإسرائيلي بموسى مستنجدا به على عدوهما القبطي . فكيف وقع هذا ؟ كيف استغاث الإسرائيلي بموسى ربيب فرعون على رجل من رجال فرعون ؟ إن هذا لا يقع إذا كان موسى لا يزال في القصر , متبنيا , أو من الحاشية . إنما يقع إذا كان الإسرائيلي على ثقة من أن موسى لم يعد متصلا بالقصر , وأنه قد عرف

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (17)

أنه من بني إسرائيل . وأنه ناقم على الملك والحاشية , منتصر لقومه المضطهدين . وهذا هو الأنسب لمن في مقام موسى - عليه السلام - فإنه بعيد الاحتمال أن تطيق نفسه البقاء في مستنقع الشر والفساد . .

(فوكزه موسى فقضى عليه) . .

والوكر الضرب بجمع اليد . والمفهوم من التعبير أنها وكزة واحدة كان فيها حتف القبطي . مما يشي بقوة موسى وفتوته , ويصور كذلك انفعاله وغضبه ; ويعبر عما كان يخالجه من الضيق بفرعون ومن يتصل به .

ولكن يبدو من السياق أنه لم يكن يقصد قتل القبطي , ولم يعمد إلى القضاء عليه . فما كاد يراه جثة هامدة بين يديه حتى استرجع وندم على فعلته , وعزاها إلى الشيطان وغوايته ; فقد كانت من الغضب , والغضب شيطان , أو نفخ من الشيطان:

(قال: هذا من عمل الشيطان . إنه عدو مضل مبين) . .

ثم استطرد في فزع مما دفعه إليه الغضب , يعترف بظلمه لنفسه أن حملها هذا الوزر , ويتوجه إلى ربه , طالبا مغفرته وعفوه:

(قال: رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي) . .

واستجاب الله إلى ضراسته , وحساسيته , واستغفاره:

(فغفر له . إنه هو الغفور الرحيم) . .

وكأنما أحس موسى بقلبه المرهف وحسه المتوفز في حرارة توجهه إلى ربه , أن ربه غفر له . والقلب المؤمن يحس بالاتصال والاستجابة للدعاء , فور الدعاء , حين يصل إرهابه وحساسيته إلى ذلك المستوى ; وحين تصل حرارة توجهه إلى هذا الحد . . وارتعش وجدان موسى - عليه السلام - وهو يستشعر الاستجابة من ربه , فإذا هو يقطع على نفسه عهدا , يعده من الوفاء بشكر النعمة التي أنعمها عليه ربه:

(قال: رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين) . .

فهو عهد مطلق ألا يقف في صف المجرمين ظهيرا ومعينا . وهو براءة من الجريمة وأهلها في كل صورة من صورها . حتى ولو كانت اندفاعا تحت تأثير الغيظ , ومراة الظلم والبغي . ذلك بحق نعمة الله عليه في قبول دعائه ; ثم نعمته في القوة والحكمة والعلم التي آتاه الله من قبل . وهذه الإرتعاشة العنيفة , وقبلها الإندفاع العنيف , تصور لنا شخصية موسى - عليه السلام - شخصية انفعالية , حارة الوجدان , قوية الاندفاع . وسنلتقي بهذه السمة البارزة في هذه الشخصية في مواضع أخرى كثيرة .

بل نحن نلتقي بها في المشهد الثاني في هذه الحلقة مباشرة:

(فأصبح في المدينة خائفاً يترقب ؛ فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه ، قال له موسى: إنك لغوي مبين . فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ، وما تريد أن تكون من المصلحين). .

لقد انتهت المعركة الأولى بالقضاء على القبطي ، وندم موسى على فعلته ، وتوجهه إلى ربه ، واستغفاره إياه ، ومغفرته له ، وعهده على نفسه ألا يكون ظهيراً للمجرمين .

ومر يوم وأصبح في المدينة خائفاً من انكشاف أمره ، يترقب الافتضاح والأذى .
ولفظاً (يترقب) يصور

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (18)

هيئة القلق الذي يتلفت ويتوجس ، ويتوقع الشر في كل لحظة . . وهي سمة الشخصية الانفعالية تبدو في هذا الموقف كذلك . والتعبير يجسم هيئة الخوف والقلق بهذا اللفظ ، كما أنه يضخمها بكلمتي (في المدينة) فالمدينة عادة موطن الأمن والطمأنينة ، فإذا كان خائفاً يترقب في المدينة ، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر !

وحالة موسى هذه تلهم أنه لم يكن في هذا الوقت من رجال القصر . وإلا فما أرخص أن يزهق أحد رجال القصر نفساً في عهود الظلم والطغيان ! وما كان ليخشى شيئاً فضلاً على أن يصبح (خائفاً يترقب) لو أنه كان ما يزال في مكانه من قلب فرعون وقصره .

وبينما هو في هذا القلق والتوجس إذا هو يطلع: (فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه)!

إنه صاحبه الإسرائيلي الذي طلب بالأمس نصرته على القبطي . إنه هو مشتبكاً مع قبطي آخر ؛ وهو يستصرخ موسى لينصره ؛ ولعله يريد منه أن يقضي على عدوهما المشترك بوكزة أخرى !

ولكن صورة قتيل الأمس كانت ما تزال تخيل لموسى . وإلى جوارها ندمه واستغفاره وعهده مع ربه . ثم هذا التوجس الذي يتوقع معه في كل لحظة أن يلحقه الأذى . فإذا هو يفعل على هذا الذي يستصرخه ، ويصفه بالغواية والضلال:

(قال له موسى: إنك لغوي مبين). .

غوي بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكات التي لا تثمر إلا أن تثير الثائرة على بني إسرائيل . وهم عن الثورة الكاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعفاء . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تفيد .

ولكن الذي حدث أن موسى - بعد ذلك - انفعلت نفسه بالغيظ من القبطي ، فاندفع يريد أن يقضي عليه كما قضى على الأول بالأمس ! ولهذا الاندفاع دلالة على تلك السمة الانفعالية التي أشرنا إليها ، ولكن له دلالة من جانب آخر على مدى امتلاء نفس موسى

- عليه السلام - بالغيط من الظلم , والنقمة على البغي , والضيق بالأذى الواقع على بني إسرائيل , والتوفز لرد العدوان الطاعي , الطويل الأمد , الذي يحتفر في القلب البشري مسارب من الغيط وأخاديد .

(فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما , قال: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس ؟ إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض , وما تريد أن تكون من المصلحين) . .

وإنه ليقع حينما يشتد الظلم , ويفسد المجتمع , وتختل الموازين , ويخيم الظلام , أن تضيق النفس الطيبة بالظلم الذي يشكل الأوضاع والقوانين والعرف ; ويفسد الفطرة العامة حتى ليرى الناس الظلم فلا يثورون عليه , ويرون البغي فلا تجيش نفوسهم لدفعه ; بل يقع أن يصل فساد الفطرة إلى حد إنكار الناس على المظلوم أن يدفع عن نفسه ويقاوم ; ويسمون من يدفع عن نفسه أو غيره (جبارا في الأرض) كما قال القبطي لموسى . ذلك أنهم ألفوا رؤية الطغيان يبطش وهم لا يتحركون . حتى وهموا أن هذا هو الأصل , وأن هذا هو الفضل , وأن هذا هو الأدب , وأن هذا هو الخلق ! وأن هذا هو الصلاح ! فإذا رأوا مظلوما يدفع الظلم عن نفسه , فيحطم السياج الذي أقامه الطغيان لحماية الأوضاع التي يقوم عليها . . إذا رأوا مظلوما يهب لتحطيم ذلك السياج المصطنع الباطل ولولوا ودهشوا , وسموا هذا المظلوم الذي يدفع الظلم سفاكا أو جبارا , وصبوا عليه لومهم ونقمتهم . ولم ينل الظالم الطاعي من نقمتهم ولومهم إلا القليل ! ولم يجدوا للمظلوم عذرا - حتى على فرض تهوره - من ضيقه بالظلم الثقيل !

ولقد طال الظلم ببني إسرائيل , فضاقت به نفس موسى - عليه السلام - حتى رأيناه يندفع في المرة الأولى

فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ (19)

ويندم , ثم يندفع في المرة الثانية لما ندم عليه حتى ليكاد يفعله , وبهم أن يبطش بالذي هو عدو له ولقومه .

لذلك لم يتخل الله عنه , بل رعاه , واستجاب له , فאלله العليم بالنفوس يعلم أن للطاقة البشرية حدا في الاحتمال . وأن الظلم حين يشتد , وتغلق أبواب النصفة , يندفع المضطهد إلى الهجوم والافتحام . فلم يهول في وصف الفعلة التي فعلها موسى , كما تهول الجماعات البشرية التي مسخ الظلم فطرتها بإزاء مثل هذا العمل الفطري مهما تجاوز الحدود تحت الضغط والكظم والضيق .

وهذه هي العبرة التي تستشف من طريقة التعبير القرآنية عن الحادثتين وما تلاهما , فهو لا يبرر الفعلة ولكنه كذلك لا يضخمها . ولعل وصفها بأنها ظلم للنفس إنما نشأ من اندفاع موسى بدافع العصبية القومية . وهو المختار ليكون رسول الله , المصنوع على عين الله . . أو لعله كان لأنه استعجل الاشتباك بصنائع الطغيان ; والله يريد أن يكون الخلاص الشامل بالطريقة التي قضاها , حيث لا تجدي تلك الاشتباكات الفردية الجانية في تغيير الأوضاع . كما كف الله المسلمين في مكة عن الاشتباك حتى جاء الأوان .

ويبدو أن رائحة فاحت عن قتيل الأمس , وأن شبهات تطايرت حول موسى . لما عرف عن كراهيته من قبل لطغيان فرعون وملئه , إلى جانب ما يكون قد باح به صاحبه الإسرائيلي سرا بين قومه , ثم تفشى بعد ذلك خارج بني إسرائيل .

نرجح هذا لأن قتل موسى لأحد رجال فرعون في معركة بينه وبين إسرائيلي في مثل هذه الظروف يعد حدثاً مريحا لنفوس بني إسرائيل , يشفى بعض غيظهم , فيشيع عادة وتتناقله الألسنة في همس وفرح وتشف , حتى يفشو ويتطاير هنا وهناك , وبخاصة إذا عرف عن موسى من قبل نفرته من البغي , وانتصاره للمظلومين .

فلما أراد موسى أن يبطش بالقبطي الثاني واجهه هذا بالتهمة , لأنها عندئذ تجسمت له حقيقة , وهو يراه يهم أن يبطش به , وقال له تلك المقالة: (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس ?).

أما بقية عبارته: (إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين). . فتلهم أن موسى كان قد اتخذ له في الحياة مسلكا يعرف به أنه رجل صالح مصلح , لا يحب البغي والتجبر . فهذا القبطي يذكره بهذا ويوري به ; ويتهمه بأنه يخالف عما عرف عنه . يريد أن يكون جبارا لا مصلحا , يقتل الناس بدلا من إصلاح ذات البين , وتهدة نائرة الشر . وطريقة خطابه له وموضوع خطابه , كلاهما يلهم أن موسى لم يكن إذ ذاك محسوبا من رجال فرعون . وإلا ما جرؤ المصري على خطابه بهذه اللهجة , ولما كان هذا موضوع خطابه .

ولقد قال بعض المفسرين: إن هذا القول كان من الإسرائيلي لا من القبطي , لأنه لما قال له موسى: (إنك لغوي ميين), ثم تقدم نحوه وهو غاضب لبطش بالذي هو عدو لهما , حسب الإسرائيلي أنه غاضب عليه هو , وأنه يتقدم لبطش به هو , فقال مقالته , وأذاع بالسر الذي يعرفه وحده . . وإنما حملهم على هذا القول أن ذلك السر كان مجهولا عند المصريين .

ولكن الأقرب أن يكون القبطي هو الذي قال ما قال . وقد عللنا شيوع ذلك السر . وأنها قد تكون فراسة أو حدسا من المصري بمساعدة الظروف المحيطة بالموضوع .

والظاهر أن موسى لم يقدم بعد إذ ذكره الرجل بفعلة الأمس , وأن الرجل أفلت لينهي إلى الملاء من قوم

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ
إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ
(21) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22)

فرعون أن موسى هو صاحبها . فهنا فجوة في السياق بعد المشهد السابق . ثم إذا مشهد جديد . رجل يجيء إلى موسى من أقصى المدينة , يحذره ائتمار الملاء من قوم فرعون به , وينصح بالهرب من المدينة إبقاء على حياته:

(وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى . قال: يا موسى إن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك . فآخرج إني لك من الناصحين). .

إنها يد القدرة تسفر في اللحظة المطلوبة , لتتم مشيئتها !

لقد عرف الملأ من قوم فرعون , وهم رجال حاشيته وحكومته والمقربون إليه أنها فعلة موسى . وما من شك أنهم أحسوا فيها بشبح الخطر . فهي فعلة طابعها الثورة والتمرد , والانتصار لبني إسرائيل . وإذن فهي ظاهرة خطيرة تستحق التأمر . ولو كانت جريمة قتل عادية ما استحققت أن يشتغل بها فرعون والملأ والكبراء . فانتدبت يد القدرة واحدا من الملأ . الأرجح أنه الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه , والذي جاء ذكره في سورة [غافر] انتدبته ليسعى إلى موسى (من أقصى المدينة) في جد واهتمام ومسارة , ليبلغه قبل أن يبلغه رجال الملك: (إن الملأ يأترون بك ليقتلوك , فاخرج إني لك من الناصحين) .

(فخرج منها خائفا يترقب . قال:رب نجني من القوم الظالمين) .

ومرة أخرى نلمح السمة الواضحة في الشخصية الانفعالية . التوفز والتلفت . ونلمح معها , التوجه المباشر بالطلب إلى الله , والتطلع إلى حمايته ورعايته , والالتجاء إلى حماه في المخافة , وترقب الأمن عنده والنجاة: (رب نجني من القوم الظالمين) .

ثم يتبعه السياق خارجا من المدينة , خائفا يترقب , وحيدا فريدا , غير مزود إلا بالاعتماد على مولاه ; والتوجه إليه طالبا عون وهداه:

(ولما توجه تلقاء مدين قال:عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) .

ونلمح شخصية موسى - عليه السلام - فريدا وحيدا مطاردا في الطرق الصحراوية في اتجاه مدين في جنوبي الشام وشمالى الحجاز . مسافات شاسعة , وأبعاد مترامية , لا زاد ولا استعداد , فقد خرج من المدينة خائفا يترقب , وخرج منزعا بنذارة الرجل الناصح , لم يتلبث , ولم يتزود ولم يتخذ دليلا . ونلمح إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه , مستسلمة له , متطلعة إلى هداة: (عسى ربي أن يهديني سواء السبيل) .

ومرة أخرى نجد موسى - عليه السلام - في قلب المخافة , بعد فترة من الأمن . بل من الرفاهية والطراءة والنعمى . ونجده وحيدا مجردا من قوى الأرض الظاهرة جميعا , يطارده فرعون وجنده , ويبحثون عنه في كل مكان , لينالوا منه اليوم ما لم ينالوه منه طفلا . ولكن اليد التي رعته وحمته هناك ترعاه وتحميه هنا , ولا تسلمه لأعدائه أبدا . فها هو ذا يقطع الطريق الطويل , ويصل إلى حيث لا تمتد إليه اليد الباطشة بالسوء:

(ولما ورد ماء مدين , وجد عليه أمة من الناس يسقون , ووجد من دونهم امرأتين تذودان . قال:ما خطبكما ؟ قالتا:لا نسقي حتي يصدر الرعاء , وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما , ثم تولى إلى الظل , فقال:رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) .

لقد انتهى به السفر الشاق الطويل إلى ماء لمدين . وصل إليه وهو مجهود مكدود . وإذا هو يطلع على مشهد لا تستريح إليه النفس ذات المروءة , السليمة الفطرة , كنفس موسى - عليه السلام - وجد الرعاة الرجال يوردون

وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا تَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24)

أنعامهم لتشرب من الماء ؛ ووجد هناك امرأتين تمنعان غنمهما عن ورود الماء . والأولى عند ذوي المروءة والفطرة السليمة ، أن تسقي المرأتان وتصدرا بأغنامهما أولا ، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما .

ولم يقعد موسى الهارب المطارد ، المسافر المكدود ، ليستريح ، وهو يشهد هذا المنظر المنكر المخالف للمعروف . بل تقدم للمرأتين يسألهما عن أمرهما الغريب :

(قال: ما خطبكما ؟).

(قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير). .

فأطلعتاه على سبب انزوائهما وتأخرهما وذودهما لغنمهما عن الورود . إنه الضعف ، فهما امرأتان وهؤلاء الرعاة رجال . وأبوهما شيخ كبير لا يقدر على الرعي ومجالدة الرجال ! واثارت نخوة موسى - عليه السلام - وفطرته السليمة . فتقدم لإقرار الأمر في نصابه . تقدم ليسقي للمرأتين أولا ، كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة . وهو غريب في أرض لا يعرفها ، ولا سند له فيها ولا ظهير . وهو مكدود قادم من سفر طويل بلا زاد ولا استعداد . وهو مطارد ، من خلفه أعداء لا يرحمون . ولكن هذا كله لا يقعد به عن تلبية دواعي المروءة والنجدة والمعروف ، وإقرار الحق الطبيعي الذي تعرفه النفوس :

(فسقى لهما). .

مما يشهد بنبل هذه النفس التي صنعت على عين الله . كما يشي بقوته التي ترهب حتى وهو في إعياء السفر الطويل . ولعلها قوة نفسه التي أوقعت في قلوب الرعاة رهبته أكثر من قوة جسمه . فإنما يتأثر الناس أكثر بقوة الأرواح والقلوب .

(ثم تولى إلى الظل). .

مما يشير إلى أن الأوان كان أوان قيظ وحر ، وأن السفارة كانت في ذلك القيظ والحر .

(فقال: رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير). .

إنه يأوي إلى الظل المادي البليل بجسمه ، ويأوي إلى الظل العريض الممدود . ظل الله الكريم المنان . بروحه وقلبه: (رب . إني لما أنزلت إلي من خير فقير). رب إني في الهاجرة . رب إني فقير . رب إني وحيد . رب إني ضعيف . رب إني إلى فضلك ومنك وكرمك فقير محوج .

ونسلم من خلال التعبير رفرقة هذا القلب والتجاءه إلى الحمى الآمن ، والركن الركين ، والظل والظليل . نسمع المناجاة القربية والهمس الموحى ، والانعطاف الرفيق ، والاتصال العميق: (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير). .

وما نكاد نستغرق مع موسى - عليه السلام - في مشهد المناجاة حتى يعجل السياق بمشهد الفرج , معقبا في التعبير بالفاء , كأنما السماء تسارع فتستجيب للقلب الصارع الغريب .

فجاءته إحداهما تمشي على استحياء . قالت: إن أبي يدعوك ليجزيك أجرا ما سقيت لنا . .

يا فرج الله: ويا لقربه ويا لنداه ! إنها دعوة الشيخ الكبير استجابة من السماء لدعوة موسى الفقير . دعوة للإيواء والكرامة والجزاء على الإحسان . دعوة تحملها: (إحداهما) وقد جاءته (تمشي على استحياء) مشية الفتاة الطاهرة الفاضلة العفيفة النظيفة حين تلقى الرجال . (على استحياء). في غير ما تبذل ولا تبرج ولا تبجح ولا إغواء . جاءته لتنتهي إليه دعوة في أقصر لفظ وأخصره وأدله , يحكيه القرآن بقوله: (إن أبي يدعوك

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (26)

ليجزيك أجرا ما سقيت لنا). فمع الحياء الإبانة والدقة والوضوح ; لا التجلج والتعثر والريكة . وذلك كذلك من إحياء الفطرة النظيفة السليمة المستقيمة . فالفتاة القويمة تستحي بفطرتها عند لقاء الرجال والحديث معهم , ولكنها لثقتها بطهارتها واستقامتها لا تضطرب . الاضطراب الذي يطمع ويغري ويهيج ; إنما تتحدث في وضوح بالقدر المطلوب , ولا تزيد .

وينهي السياق هذا المشهد فلا يزيد عليه , ولا يفسح المجال لغير الدعوة من الفتاة , والاستجابة من موسى . ثم إذا مشهد اللقاء بينه وبين الشيخ الكبير . الذي لم ينص على اسمه . وقيل: إنه ابن أخي شعيب النبي المعروف . وإن اسمه يشرون .

(فلما جاءه وقص عليه القصص , قال: لا تخف . نجوت من القوم الظالمين).

فقد كان موسى في حاجة إلى الأمن ; كما كان في حاجة إلى الطعام والشراب . ولكن حاجة نفسه إلى الأمن كانت أشد من حاجة جسمه إلى الزاد . ومن ثم أبرز السياق في مشهد اللقاء قول الشيخ الوقور: (لا تخف) فجعلها أول لفظ يعقب به على قصصه ليلقي في قلبه الطمأنينة , وبشعره بالأمان . ثم بين وعلل: (نجوت من القوم الظالمين) فلا سلطان لهم على مدين , ولا يصلون لمن فيها بأذى ولا ضرار .

ثم نسمع في المشهد صوت الأنوثة المستقيمة السليمة:

(قالت إحداهما ; يا أبت استأجره . إن خير من استأجرت القوي الأمين).

إنها وأختها تعانيان من رعي الغنم , ومن مزاحمة الرجال على الماء , ومن الاحتكاك الذي لا بد منه للمرأة التي تزاوّل أعمال الرجال . وهي تتأذى وأختها من هذا كله ; وتريد أن تكون امرأة تأوي إلى بيت ; امرأة عفيفة مستورة لا تحتك بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى . والمرأة العفيفة الروح النظيفة القلب , السليمة الفطرة , لا تستريح لمزاحمة الرجال , ولا للتبذل الناشئ من هذه المزاحمة .

وها هو ذا شاب غريب طريد وهو في الوقت ذاته قوي أمين . رأت من قوته ما يهابه الرعاء فيفسحون له الطريق ويسقي لهما . وهو غريب . والغريب ضعيف مهما اشتد . ورأت من أمانته ما يجعله عف اللسان والنظر حين توجهت لدعوته . فهي تشير على أبيها باستئجاره ليكفيها وأختها مؤنة العمل والاحتكاك والتبذل . وهو قوي على العمل , أمين على المال . فالأمين على العرض هكذا أمين على ما سواه . وهي لا تتلغم في هذه الإشارة ولا تضطرب , ولا تخشى سوء الظن والتهمة . فهي بريئة النفس , نظيفة الحس ; ومن ثم لا تخشى شيئا , ولا تتمم ولا تجمجم وهي تعرض اقتراحها على أبيها .

ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى . كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه - فيما قالوا - إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل . فالبئر لم يكن مغطى , إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمراتين , أو سقى لهما مع الرعاء .

قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنَكِّحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حَجَّ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (27)

ولا حاجة كذلك لما رواه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشي خلفي ودليني على الطريق خوف أن يراها . أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها . . فهذا كله تكلف لا داعي له , ودفع لريبة لا وجود لها . وموسى - عليه السلام - عفيف النظر نظيف الحس , وهي كذلك , والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة . فالعفة تنضح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع !

واستجاب الشيخ لاقتراح ابنته . ولعله أحس من نفس الفتاة ونفس موسى ثقة متبادلة , وميلا فطريا سليما , صالحا لبناء أسرة . والقوة والأمانة حين تجتمعان في رجل لا شك تهفو إليه طبيعة الفتاة السليمة التي لم تفسد ولم تلوث ولم تنحرف عن فطرة الله . فجمع الرجل بين الغائتين وهو يعرض على موسى أن يزوجه إحدى ابنتيه في مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثمانين سنين . فإن زادها إلى عشر فهو تفضل منه لا يلزم به .

(قال: إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين , على أن تأجرني ثمانين حج . فإن أتممت عشرا فمن عندك . وما أريد أن أشق عليك . ستجدني إن شاء الله من الصالحين).

وهكذا في بساطة وصراحة عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد - ولعله كان يشعر كما أسلفنا - أنها محددة , وهي التي وقع التجاوب والثقة بين قلبها وقلب الفتى . عرضها في غير تحرج ولا التواء . فهو يعرض نكاحا لا يخجل منه . يعرض بناء أسرة وإقامة بيت وليس في هذا ما يخجل , ولا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد , والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة , وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة , تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفائته لابنته أو أخته أو قريبته ; وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم , أو لا يليق أن يجيء العرض من الجانب الذي فيه المرأة ! ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نية نكاح . فأما حين تعرض الخطبة أو يذكر النكاح , فيهبط الخجل المصطنع , وتقوم الحوائل المتكلفة وتمتنع المصارحة والبساطة والإبانة !

ولقد كان الآباء يعرضون بناتهم على الرجال على عهد رسول الله [ص] بل كانت النساء تعرض نفسها على النبي [ص] أو من يرغب في تزويجهن منهم . كان يتم هذا في صراحة ونظافة وأدب جميل , لا تخدش معه كرامة ولا حياة . . عرض عمر - رضي الله عن - ابنته حفصة على أبي بكر فسكت وعلى عثمان فاعتذر , فلما أخبر النبي [ص] بهذا طيب خاطره , عسى أن يجعل الله لها نصيبا فيمن هو خير منهما . ثم تزوجها [ص] وعرضت امرأة نفسها على رسول الله [ص] فاعتذر لها . فآلت إليه ولاية أمرها يزوجها ممن يشاء . فزوجها رجلا لا يملك إلا سورتين من القرآن , علمها إياهما فكان هذا صداقها .

وبمثل هذه البساطة والوضاءة سار المجتمع الإسلامي بيني بيوته وقيم كيانه . في غير ما تعلمم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء .

وهكذا صنع الشيخ الكبير - صاحب موسى - فعرض على موسى ذلك العرض وأعدا إياه ألا يشق عليه ولا يتعبه في العمل ; راجيا بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه . وهو أدب جميل في التحدث عن النفس وفي جانب الله . فهو لا يزكي نفسه , ولا يجزم بأنه من الصالحين . ولكن يرجو أن يكون كذلك , ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله .

وقبل موسى العرض وأمضى العقد ; في وضوح كذلك ودقة , وأشهد الله:

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ بِمَا تَقُولُ وَكِيلٌ (28)
فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30)

(قال ذلك بيني وبينك . أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على . والله علي ما نقول وكيل).

إن مواضع العقد وشروط التعاقد لا مجال للغموض فيها , ولا اللعنة , ولا الحياء . ومن ثم يقر موسى العرض , ويبرم العقد , على ما عرض الشيخ من الشروط . ثم يقرر هذا ويوضحه: (أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي). . سواء قضيت ثماني سنوات أو أتممت عشرة , فلا عدوان في تكاليف العمل , ولا عدوان في تحميم العشر ; فالزيادة على الثمانية اختيار . . (والله على ما نقول وكيل). فهو الشهيد الموكل بالعدل بين المتعاقدين . وكفى بالله وكيفا .

بين موسى - عليه السلام - هذا البيان تمشيا مع استقامة فطرته , ووضوح شخصيته , وتوفية بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان . وهو ينوي أن يوفي بأفضل الأجلين كما فعل . فقد روي أن رسول الله [ص] أخبر أنه: " قضى أكثرهما وأطيهما "

وهكذا اطمأن بموسى - عليه السلام - المقام في بيت حميه ; وقد أمن من فرعون وكيده . ولحكمة مقدرة في علم الله كان هذا الذي كان . . فلندع الآن هذه الحلقة

تمضي في طريقها حتى تنقضي . فقد سكت السياق فيها عند هذا الحد وأسدل الستار . .

الدرس الرابع: 29 - 35 تمهيد للدرس

وتمضي السنوات العشر التي تعاقد عليها موسى - عليه السلام - لا يذكر عنها شيء في سياق السورة , ثم تعرض الحلقة الثالثة بعد ما قضى موسى الأجل وسار بأهله , عائداً من مدين إلى مصر , يسلك إليها الطريق الذي سلكه منذ عشر سنوات وحيدا طريقا . ولكن جو العودة غير جو الرحلة الأولى . . إنه عائد ليتلقى في الطريق ما لم يخطر له على بال . ليناديه ربه وبكلمه , ويكلفه النهوض بالمهمة التي من أجلها وقاه ورعاه , وعلمه ورباه . مهمة الرسالة إلى فرعون وملئه , ليطلق له بني إسرائيل يعبدون ربهم لا يشركون به أحدا ويرثون الأرض التي وعدهم ليتمكن لهم فيها ثم ليكون لفرعون وهامان وجنودهما عدوا وحزنا , ولتكون نهايتهم على يديه كما وعد الله حقا:

فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا , قال لأهله: امكثوا , إني آنست نارا , لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أنها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة: أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ; وأن ألق عصاك , فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب , يا موسى أقبل ولا تخف , إنك من الآمنين . اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء , واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهاتان من ربك إلى فرعون وملئه , إنهم كانوا قوما فاسقين . قال: رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون . وأخي هارون هو أفصح مني لسانا , فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون . قال: سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

وقبل أن نستعرض هذين المشهدين في هذه الحلقة نقف قليلا أمام تدبير الله لموسى - عليه السلام - في هذه السنوات العشر , وفي هذه الرحلة ذهابا وجيئة , في هذا الطريق . .

لقد نقلت يد القدرة خطي موسى - عليه السلام - خطوة خطوة . منذ أن كان رضيعا في المهد حتى هذه الحلقة . ألقت به في اليم ليلتقطه آل فرعون . وألقت عليه المحبة في قلب امرأته لينشأ في كنف عدوه . ودخلت به المدينة على حين غفلة من أهلها ليقتل منهم نفسا . وأرسلت إليه بالرجل المؤمن من آل فرعون ليحذره وينصحه بالخروج منها . وصاحبته في الطريق الصحراوي من مصر إلى مدين وهو وحيد مطارد على غير زاد ولا استعداد . وجمعت به الشيخ الكبير ليأجره هذه السنوات العشر . ثم ليعود بعدها فيتلقى التكليف . .

هذا خط طويل من الرعاية والتوجيه , ومن التلقي والتجريب , قبل النداء وقبل التكليف . . تجربة الرعاية والحب والتدليل . وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس , وتجربة الندم والتخرج والاستغفار . وتجربة الخوف والمطاردة والفرار . وتجربة الغربة والوحدة والجوع . وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور . وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة , والمشاعر المتباينة , والخوارج والخواطر , والإدراك والمعرفة . . إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة .

إن الرسالة تكليف ضخم شاق متعدد الجوانب والتبعات ; يحتاج صاحبه إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي , إلى جانب هبة الله اللدنية , ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير .

ورسالة موسى بالذات قد تكون أضخم تكليف تلقاه بشر - عدا رسالة محمد . [ص] فهو مرسل إلى فرعون الطاغية المتجبر , أعنى ملوك الأرض في زمانه , وأقدمهم عرشا , وأثبتهم ملكا , وأغرقهم حضارة , وأشدّهم تعبدا للخلق واستعلاء في الأرض .

وهو مرسل لاستنقاذ قوم قد شربوا من كؤوس الذل حتى استمروا مذاقه , فمردوا عليه واستكانوا دهرًا طويلا . والذل يفسد الفطرة البشرية حتى تأسن وتتغفن ; وبذهب بما فيها من الخير والجمال والتطلع ومن الاشمئزاز من العفن والتن والرجس والدنس . فاستنقاذ قوم كهؤلاء عمل شاق عسير .

وهو مرسل إلى قوم لهم عقيدة قديمة ; انحرفوا عنها , وفسدت صورتها في قلوبهم . فلا هي قلوب خامة تتقبل العقيدة الجديدة ببراءة وسلامة ; ولا هي باقية على عقيدتها القديمة . ومعالجة مثل هذه القلوب شاقة عسيرة . والالتواءات فيها والرواسب والانحرافات تزيد المهمة مشقة وعسرا .

وهو في اختصار مرسل لإعادة بناء أمة , بل لإنشائها من الأساس . فلأول مرة يصبح بنو إسرائيل شعبا مستقلا , له حياة خاصة , تحكمها رسالة . وإنشاء الأمم عمل ضخم شاق عسير .

ولعله لهذا المعنى كان عناية القرآن الكريم بهذه القصة , فهي نموذج كامل لبناء أمة على أساس دعوة , وما يعترض هذا العمل من عقبات خارجية وداخلية . وما يعتوره من انحرافات وانطباعات وتجارب وعراقيل .

فأما تجربة السنوات العشر فقد جاءت لتفصل بين حياة القصور التي نشأ فيها موسى - عليه السلام - وحياة الجهد الشاق في الدعوة وتكاليها العسيرة .

وإن لحياة القصور جوا خاصا , وتقاليدها خاصة , وطلالا خاصة تلقيها على النفس وتطبعها بها مهما تكن هذه النفس من المعرفة والإدراك والشفافية . والرسالة معاناة لجماهير من الناس فيهم الغني والفقير , والواجد والمحروم , وفيهم النظيف والوسخ , والمهذب والخبث ; وفيهم الطيب والخبث والخير والشرير . وفيهم القوي والضعيف , والصابر والجزوع . . وفيهم وفيهم . . وللفقراء عادات خاصة في أكلهم وشربهم ولبسهم ومشيتهم , وطريقة فهمهم للأمور , وطريقة تصورهم للحياة , وطريقة حديثهم وحركتهم , وطريقة تعبيرهم عن مشاعرهم . . وهذه العادات تثقل على نفوس المنعمين ومشاعر الذين تربوا في القصور ; ولا يكادون يطبقون رؤيتها فضلا على معاناتها وعلاجها , مهما تكن قلوب هؤلاء الفقراء عامرة بالخير مستعدة للصالح , لأن مظهرهم وطبيعة عاداتهم لا تفسح لهم في قلوب أهل القصور !

وللرسالة تكاليها من المشقة والتجرد والشظف أحيانا . . وقلوب أهل القصور - مهما تكن مستعدة للتضحية بما اعتادته من الخفض والدعة والمتعة - لا تصبر طويلا على الخشونة والحرمان والمشقة عند معاناتها في واقع الحياة

فشاءت القدرة التي تنقل خطى موسى - عليه السلام - أن تخفض مما اعتادته نفسه من تلك الحياة ; وأن تزج به في مجتمع الرعاة , وأن تجعله يستشعر النعمة في أن يكون راعي غنم يجد القوت والمأوى , بعد الخوف والمطاردة والمشقة والجوع . وأن ينزع من حسه روح الاشتمزاز من الفقر والفقراء , وروح التأفف من عاداتهم وأخلاقهم وخشونتهم وسذاجتهم ; وروح الاستعلاء على جهلهم وفقرهم وورثاة هيئتهم ومجموعة عاداتهم وتقاليدهم . وأن تلقي به في خضم الحياة كئيرا بعد ما ألقت به في خضم الأمواج صغيرا , ليمرن على تكاليف دعوته قبل أن يتلقاها . .

فلما أن استكملت نفس موسى - عليه السلام - تجاربها , وأكملت مرانيتها ودربتها , بهذه التجربة الأخيرة في دار الغربة , قادت يد القدرة خطاه مرة أخرى عائدة به إلى مهبط رأسه , ومقر أهله وقومه , ومجال رسالته وعمله , سالكة به الطريق التي سلكها أول مرة وحيدا طريدا خائفا يتلفت . فما هذه الجيئة والذهوب في ذات الطريق ؟ إنها التدريب والمرانة والخبرة حتى بشعاب الطريق . الطريق الذي سيقود فيه موسى خطى قومه بأمر ربه . كي يستكمل صفات الرائد وخبرته , حتى لا يعتمد على غيره ولو في قيادة الطريق . فقومه كانوا في حاجة إلى رائد يقودهم في الصغيرة والكبيرة , بعد أن أفسدهم الذل والقسوة والتسخير ; حتى فقدوا القدرة على التدبير والتفكير .

وهكذا ندرك كيف صنع موسى على عين الله , وكيف أعدته القدرة لتلقي التكليف . فلنتبع خطى موسى تنقلها يد القدرة الكبرى , في طريقه إلى هذا التكليف .

الدرس الرابع: 29 - 30 تكليف موسى بالذهاب إلى فرعون

(فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا . قال لأهله: امكثوا إني آنست نارا , لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون). .

ترى أي خاطر راود موسى , فعاد به إلى مصر , بعد انقضاء الأجل , وقد خرج منها خائفا يتربص ? وأنساه الخطر الذي ينتظره بها , وقد قتل فيها نفسا ? وهناك فرعون الذي كان يتآمر مع الملأ من قومه ليقتلوه ?

إنها اليد التي تنقل خطاه كلها , لعلها قادت هذه المرة بالميل الفطري إلى الأهل والعشيرة , وإلى الوطن والبيئة , وأنسته الخطر الذي خرج هاربا منه وحيدا طريدا . ليؤدي المهمة التي خلق لها ورعي منذ اللحظة الأولى .

على أية حال ها هو ذا عائد في طريقه , ومعه أهله , والوقت ليل , والجو ظلمة ; وقد ضل الطريق , والليل شاتية , كما يبدو من أنسه بالنار التي شاهدها , ليأتي منها بخبر أو جذوة . . هذا هو المشهد الأول في هذه الحلقة .

فأما المشهد الثاني فهو المفاجأة الكبرى:

فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة . .

فها هو ذا يقصد إلى النار التي آنساها , وها هو ذا في شاطئ الوادي إلى جوار جبل الطور , الوادي إلى يمينه , (في البقعة المباركة). . المباركة , منذ هذه اللحظة . . ثم هذا هو الكون كله تتجاوب جنباته بالنداء العلوي الآتي لموسى (من الشجرة) ولعلها كانت الوحيدة في هذا المكان:

وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ
إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)
(أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ):

وتلقى موسى النداء المباشر . تلقاه وحيدا في ذلك الوادي العميق , في ذلك الليل الساكن . تلقاه يتجاوب به الكون من حوله , وتمتلىء به السماوات والأرضون . تلقاه لا ندري كيف وبأية جارية وعن أي طريق . تلقاه ملء الكون من حوله , وملء كيانه كله . تلقاه وأطاق تلقيه لأنه صنع على عين الله حتى تهيأ لهذه اللحظة الكبرى .

وسجل ضمير الوجود ذلك النداء العلوي ; وبوركت البقعة التي تجلى عليها ذو الجلال ; و تميز الوادي الذي كرم بهذا التجلي , ووقف موسى في أكرم موقف يلقاه إنسان .

واستطرد النداء العلوي يلقي إلى عبده التكليف:

(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) . .

وألقى موسى عصاه إطاعة لأمر مولاه ; ولكن ماذا ? إنها لم تعد عصاه التي صاحبها طويلا , والتي يعرفها معرفة اليقين . إنها حية تدب في سرعة , وتتحرك في خفة , وتتلقى كصغار الحيات وهي حية كبرى:

(فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبرا ولم يعقب) . .

إنها المفاجأة التي لم يستعد لها ; مع الطبيعة الانفعالية , التي تأخذها الوهلة الأولى . . (ولي مدبرا ولم يعقب) ولم يفكر في العودة إليها ليتبين ماذا بها ; وليتأمل هذه العجبة الضخمة . وهذه هي سمة الانفعاليين البارزة تتجلى في مواعدها !

ثم يستمع إلى ربه الأعلى:

(يا موسى أقبل ولا تخف إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) . .

إن الخوف والأمن يتعاقبان سريعا على هذه النفس , ويتعاورانه في مراحل حياتها جميعا . إنه جو هذه الحياة من بدئها إلى نهايتها ; وإن هذا الانفعال الدائم لمقصود في تلك النفس , مقدر في هذه الحياة , لأنه الصفحة المقابلة لتبلد بني إسرائيل , ومرودهم على الاستكانة ذلك الأمد الطويل . وهو تدبير القدرة وتقديرها العميق الدقيق .

(أقبل ولا تخف إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) . .

وكيف لا يأمن من تنقل يد القدرة خطاه , ومن ترعاه عين الله ?

(اسلك يداك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء) . .

وأطاع موسى الأمر , وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها . فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة . إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض , وقد

عهدھا أدماء تضرب إلى السمرة . إنها إشارة إلى إشراق الحق ووضوح الآية ونصاعة الدليل .

وأدركت موسى طبيعته . فإذا هو يرتجف من رهبة الموقف وخوارقه المتتابعة . ومرة أخرى تدركه الرعاية الحانية بتوجيه يرده إلى السكينة . ذلك أن يضم يده على قلبه , فتخفص من دقاته , وتطامن من خفقاته:

(واضمم إليك جناحك من الرهب) . .

وكأنما يده جناح يقبضه على صدره , كما يطمئن الطائر فيطبق جناحه . والرفرة أشبه بالخفقان , والقبض أشبه بالإطمئنان . والتعبير يرسم هذه الصورة على طريقة القرآن .

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرُّجَ بَيْضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (34) قَالَ سَنُنْذِرُ عَصُودَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)

والآن وقد تلقى موسى ما تلقى , وقد شاهد كذلك ما شاهد , وقد رأى الآيتين الخارقتين , وقد ارتجف لهما ثم اطمأن . . الآن يعرف ما وراء الآيات , والآن يتلقى التكليف الذي كان يعد من طفولته الباكرة ليتلقاه . .

(فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه . إنهم كانوا قوما فاسقين) . .

وإذن فهي الرسالة إلى فرعون وملئه . وإذن فهو الوعد الذي تلقته أم موسى وهو طفل رضيع: (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) . . الوعد اليقين الذي انقضت عليه السنون . وعد الله لا يخلف الله وعده وهو أصدق القائلين .

هنا يتذكر موسى أنه قتل منهم نفسا , وأنه خرج من بينهم طريدا , وأنهم تآمروا على قتله فهرب منهم بعيدا . وهو في حضرة ربه . وربه يكرمه بلقائه , ويكرمه بنجائه , ويكرمه بآياته , ويكرمه برعايته , فما له لا يحتاط لدعوته خيفة أن يقتل فتقطع رسالته:

(قال:رب إنني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) . .

يقولها لا ليعتذر , ولا ليتقاعس , ولا لينكص ; ولكن ليحتاط للدعوة , ويطمئن إلى مضيها في طريقها , لو لقي ما يخاف . وهو الحرص اللائق بموسى القوي الأمين:

(وأخي هارون هو أفصح مني لسانا , فأرسله معي ردءا يصدقني , إنني أخاف أن يكذبون) .

إن هارون أفصح لسانا فهو أقدر على المنافحة عن الدعوة . وهو ردء له معين , يقوي دعواه , ويخلفه إن قتلوه .

وهنا يتلقى موسى الإستجابة والتطمين:

(قال: سنشد عضدك بأخيك , ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أتتكم ومن اتبعكما الغالبون). .

لقد استجاب ربه رجاءه ; وشد عضده بأخيه . وزاده على ما رجاه البشارة والتطمين: (ونجعل لكما سلطانا). . فهما لن يذهبا مجردين إلى فرعون الجبار . إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان ; ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار: (فلا يصلون إليكما). . وحولكما من سلطان الله سياج , ولكما منه حصن وملاذ .

ولا تقف البشارة عند هذا الحد . ولكنها الغلبة للحق . الغلبة لآيات الله التي يجهبان بها الطغاة . فإذا هي وحدها السلاح والقوة , وأداة النصر والغلبة: (بآياتنا أتتكم ومن اتبعكم الغالبون).

فالقدره تتجلى سافرة على مسرح الحوادث ; وتؤدي دورها مكشوفاً بلا ستار من قوى الأرض , لتكون الغلبة بغير الأسباب التي تعارف عليها الناس , في دنيا الناس , وليقوم في النفوس ميزان جديد للقوى والقيم . إيمان وثقة بالله , وما بعد ذلك فعلى الله .

الدرس الخامس: 36 - 42 رفض فرعون وآله للدعوة وإهلاكهم

وينتهي هذا المشهد الرائع الجليل ; ويطوى الزمان ويطوى المكان , فإذا موسى وهارون في مواجهة فرعون , بآيات الله البينات ; وإذا الحوار بين الهدى والضلال ; وإذا النهاية الحاسمة في هذه الدنيا بالغرق , وفي الحياة الأخرى باللعة . في سرعة واختصار:

(فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا: ما هذا إلا سحر مفترى , وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين . وقال موسى: ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده , ومن تكون له عاقبة الدار , إنه لا يفلح الظالمون . وقال فرعون:

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (36) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ يَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (37) وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنَّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (38)

يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلني أطلع إلى إله موسى , وإني لأظنه من الكاذبين . واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق , ووطنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار , ويوم القيامة لا ينصرون ; وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة , ويوم القيامة هم من المقبوحين). .

إن السياق هنا يعجل بالضربة القاضية ; ويختصر حلقة السحرة التي تذكر في سور أخرى بتفصيل أو إجمال . يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك . ثم لا يقف عند الأخذ في الدنيا , بل يتابع الرحلة إلى الآخرة . . وهذا الإسراع في هذه الحلقة مقصود , متناسق مع اتجاه القصة في السورة: وهو تدخل يد القدرة بلا ستار من البشر , فما إن يواجه موسى فرعون حتى يعجل الله بالعاقبة , وتضرب يد القدرة ضربتها الحاسمة , بلا تفصيل في المواجهة أو تطويل .

(فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا: ما هذا إلا سحر مفترى , وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين). .

وكأنما هي ذات القولة التي يقولها المشركون لمحمد [ص] في مكة يومذاك . . (ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين). . فهي الممارسة في الحق الواضح الذي لا يمكن دفعه . الممارسة المكرورة حيثما واجه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب . إنهم يدعون أنه سحر , ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم , لم يسمعو به في آبائهم الأولين !

وهم لا يناقشون بحجة , ولا يدلون ببرهان , إنما يلقون بهذا القول الغامض الذي لا يحق حقا ولا يبطل باطلا ولا يدفع دعوى . فأما موسى - عليه السلام - فيحيل الأمر بينه وبينهم إلى الله . فما أدلوا بحجة ليناقضها , ولا طلبوا دليلا فيعطيهما إنما هم يمارون كما يماري أصحاب الباطل في كل مكان وفي كل زمان , فالاختصار أولى والإعراض أكرم , وترك الأمر بينه وبينهم إلى الله:

(وقال موسى:ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار , إنه لا يفلح الظالمون).

وهو رد مؤدب مهذب , يلمح فيه ولا يصرح . وفي الوقت ذاته ناصع واضح , مليء بالثقة والطمأنينة إلى عاقبة المواجهة بين الحق والباطل . فربه أعلم بصدقه وهداه , وعاقبة الدار مكفولة لمن جاء بالهدى , والظالمون في النهاية لا يفلحون . سنة الله التي لا تتبدل . وإن بدت ظواهر الأمور أحيانا في غير هذا الإتجاه . سنة الله يواجه بها موسى قومه ويواجه بها كل نبي قومه .

وكان رد فرعون على هذا الأدب وهذه الثقة ادعاء وتطاولا , ولعبا ومداورة , وتهكما وسخرية:

(وقال فرعون:يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري . فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى , وإني لأظنه من الكاذبين). .

يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري . . كلمة فاجرة كافرة , يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم . ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب الملوك للآلهة . ثم على القهر , الذي لا يدع لرأس أن يفكر , ولا للسان أن يعبر . وهم يرونه بشرا مثلهم يحيا ويموت , ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب !

ثم يتظاهر بالجد في معرفة الحقيقة , والبحث عن إله موسى , وهو يلهو ويسخر: (فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي أطلع إلى إله موسى). . في السماء كما يقول ! وبلهجة التهكم ذاتها يتظاهر بأنه شاك في صدق موسى , ولكنه مع هذا الشك يبحث وينقب ليصل إلى الحقيقة: (وإني لأظنه من الكاذبين)!

وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ

إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ
مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ
لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (43)

وفي هذا الموضوع كانت حلقة المباراة مع السحرة . وهي محذوفة هنا للتعجيل بالنهاية:

(واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق , وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون). .

فلما توهّموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا في الأرض بغير الحق , وكذبوا بالآيات والنذر
[التي جاء ذكرها في مطلع هذه الحلقة , ووردت بالتفصيل في سور أخرى] .

(فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم).

هكذا في اختصار حاسم . أخذ شديد ونبذ في اليم . نبذ كما تحذف الحصاة أو كما يرمى
بالحجر . اليم الذي ألقى في مثله موسى الطفل الرضيع , فكان مأمنا وملجأ . وهو ذاته
الذي ينبذ فيه فرعون الجبار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة . فالأمن إنما يكون في
جنب الله , والمخافة إنما تكون في البعد عن ذلك الجنب . (فانظر كيف كان عاقبة
الظالمين). .

فهي عاقبة مشهودة معروضة للعالمين . وفيها عبرة للمعتبرين , ونذير للمكذبين . وفيها
يد القدرة تعصف بالطغاة والمتجبرين في مثل لمح البصر , وفي أقل من نصف سطر !

وفي لمحة أخرى يجتاز الحياة الدنيا ; ويقف بفرعون وجنوده في مشهد عجيب . .
يدعون إلى النار , ويقودون إليها الأتباع والأنصار:

(وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار). .

فيا بئسها دعوة ! وبا بئسها إمامة !

(ويوم القيامة لا ينصرون). .

فهي الهزيمة في الدنيا , وهي الهزيمة في الآخرة , جزاء البغي والاستطالة . وليست
الهزيمة وحدها , إنما هي اللعنة في هذه الأرض , والتقيح في يوم القيامة:

(وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة , ويوم القيامة هم من المقبوحين).

ولفظة (المقبوحين) ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع , وجو التقزز
والاشمئزاز . ذلك في مقابل الاستعلاء والاستكبار في الأرض , وفتنة الناس بالمظهر
والجاه , والتطاول على الله وعلى عباد الله .

الدرس السادس: 43 إشارة إلى أبعاد رسالة موسى

ويعبر السياق هنا مرحلة الخروج ببني إسرائيل من مصر , وما حدث خلالها من أحداث ,
ليعجل بعرض نصيب موسى بعد عرض نصيب فرعون:

(ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى , بصائر للناس , وهدى ورحمة , لعلمهم يتذكرون). .

هذا نصيب موسى . وهو نصيب عظيم . وهذه عاقبة موسى . وهي عاقبة كريمة . .
كتاب من الله يبصر الناس كأنه بصائرهم التي بها يهتدون , (وهدى ورحمة). . (لعلمهم يتذكرون). . يتذكرون كيف تتدخل يد القدرة بين الطغاة والمستضعفين , فتختم للطغاة بالهلاك والتدمير , وتختتم للمظلومين بالخير والتمكين .

وهكذا تنتهي قصة موسى وفرعون في هذه السورة . شاهدة بأن الأمن لا يكون إلا في جانب الله . وأن المخافة لا تكون إلا في البعد عن الله . ذلك إلى تدخل يد القدرة سافرة متحدة للطغيان والطغاة , حين تصبح القوة فتنة

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَصَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمَهُ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46)

يعجز عن صدها الهداة . وهي المعاني التي كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المستضعفة في مكة في حاجة إلى الاطمئنان إليها . وكان المشركون المستكبرون في حاجة إلى تدبرها . وهي المعاني المتجددة الدائمة حيثما كانت دعوة إلى الهدى , وحيثما كان طغيان يقف في وجه الهدى .

وهكذا يجيء القصص في القرآن مادة تربية للنفوس , وتقرير لحقائق وسنن في الوجود (لعلمهم يتذكرون). .

الوحدة الثانية: 44 - 75 الموضوع: حقائق إعتقادية ومواجهة المشركين مقدمة الوحدة

مضت قصة موسى - عليه السلام - بدلالاتها التي وضحت في الدرس الماضي . فأما في هذا الدرس فتبدأ التعقيبات عليها ; ثم يمضي السياق في طريقه على محور السورة الأصيل , يبين أين يكون الأمن وأين تكون المخافة ; ويجول مع المشركين الذين يواجهون دعوة الإسلام بالشرك والإنكار والمعاذير . يجول معهم جولات

وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمُ مُّصِيبَةٌ يَمَّا قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (47)

شتى في مشاهد الكون , وفي مشاهد الحشر , وفيما هم فيه من الأمر ; بعد أن يعرض عليهم دلائل الصدق فيما جاءهم به رسولهم [ص] وكيف يتلقاه فريق من أهل الكتاب بالإيمان واليقين بينما هم يتلقونه بالكفران والجحود . وهو رحمة لهم من العذاب , لو أنهم كانوا يتذكرون .

الدرس الأول: 44 - 51 قصة موسى في القرآن دليل على الوحي

والتعقيب الأول على القصة يدور حول دلالتها على صدق دعوى الوحي . فرسول الله [ص] يتلو عليهم تفصيلات الأحداث كما يقصها شاهد العيان ; وما كان حاضر أحداثها ,

ولكنه الوحي يقصها عليه من لدن عليم خبير , رحمة بقومه أن يصيبهم العذاب بما هم فيه من الشرك (فيقولوا:ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين). .

وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر , وما كنت من الشاهدين . ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر . وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ; ولكننا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ; ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون . ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم , فيقولوا:ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا:لولا أوتي مثلما أوتي موسى ! أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ? قالوا:سحران:تظاهرا . وقالوا:إنا بكل كافرون . قل:فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما أتبعه . إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ? إن الله لا يهدي القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون . .

والغربي هو الجانب الغربي للطور الذي جعله الله ميقاتا مع موسى - عليه السلام - بعد أجل محدد . . ثلاثين ليلة , أتمها بعشر . فكانت أربعين ليلة [على ما ذكر في سورة الأعراف] وفي هذا الميقات قضى الأمر لموسى في الألواح , لتكون شريعته في بني إسرائيل . وما كان رسول الله [ص] شاهدا لهذا الميقات , حتى يعلم نبأه المفصل , كما ورد في القرآن الكريم . وإن بينه وبين هذا الحادث لقرونا من الناس - أي أجيالا متطاولة: (ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر). فتلك دلالة على أن الذي نبأه به هو العليم الخبير , الذي يوحى إليه بالقرآن الكريم .

ولقد تحدث القرآن كذلك بأنباء مدين , ومقام موسى - عليه السلام - بها وتلاها رسول الله [ص] وما كان مقيما في أهل مدين , يتلقى عنهم أخبار هذه الفترة بمثل ذلك التفصيل الذي جاءت فيه: (ولكننا كنا مرسلين) بهذا القرآن وما فيه من أنباء السابقين .

كذلك صور القرآن موقف المناذاة والمناجاة من جانب الطور بدقة وعمق: (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) وما سمع رسول الله [ص] النداء , وما سجل في وقتها تفصيلاته . ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء , أن قص عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه [ص] فيما يدعوهم إليه , لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله - فقد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم , ولم يرسل إليهم رسول منذ أمد طويل , منذ أبيهم إسماعيل: (لعلهم يتذكرون).

فهي رحمة الله بالقوم . وهي حجته كذلك عليهم , كي لا يعتذروا بأنهم أخذوا على غرة , وأنهم لم ينذروا قبل أخذهم بالعذاب - وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب - فأراد الله أن يقطع حجتهم , وأن يعذر إليهم , وأن يقفهم أمام أنفسهم مجردين من كل عائق يعوقهم عن الإيمان:

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ (48) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (49) فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)

(ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا:ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، فنتبع آياتك ، ونكون من المؤمنين!). .

كذلك كانوا سيقولون لو لم يأتهم رسول . ولو لم يكن مع هذا الرسول من الآيات ما يلزم الحجة . ولكنهم حين جاءهم الرسول ، ومعهم الحق الذي لا مزية فيه لم يتبعوه:

فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا:لولا أوتي مثلما أوتي موسى ! أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ قالوا:سحران تظاهرا ، وقالوا:إن بكل كافرون . .

وهكذا لم يذعنوا للحق ، واستمسكوا بالتعلات الباطلة: قالوا:لولا أوتي مثلما أوتي موسى إما من الخوارق المادية ، وإما من الألواح التي نزلت عليه جملة ، وفيها التوراة كاملة .

ولكنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم ، ولا مخلصين في اعتراضهم: (أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟)ولقد كان في الجزيرة يهود ، وكان معهم التوراة ، فلم يؤمن لهم العرب ، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة . ولقد علموا أن صفة محمد [ص] مكتوبة في التوراة ، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بما يفيد أنه الحق ، وأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب ؛ فلم يذعنوا لهذا كله ، وادعوا أن التوراة سحر ، وأن القرآن سحر ، وأنهما من أجل هذا يتطابقان ، ويصدق أحدهما الآخر:

(قالوا:سحران تظاهرا . وقالوا:إننا بكل كافرون)!

فهو المراء إذن واللحاجة ، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين ، ولا ضعف الدليل .

ومع هذا فهو يسير معهم خطوة أخرى في الإفحام والإحراج . يقول لهم:إن لم يكن يعجبكم القرآن ، ولم تكن تعجبكم التوراة ؛ فإن كان عندكم من كتب الله ما هو أهدي من التوراة والقرآن فأتوا به أتبعه:

(قل:فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما أتبعه . إن كنتم صادقين)!

وهذه نهاية الإنصاف ، وغاية المطاولة بالحجة ، فمن لم يجنح إلى الحق بعد هذا فهو ذو الهوى المكابر ، الذي لا يستند إلى دليل:

(فإن لم يستجيبوا لك ، فاعلم أنما يتبعون أهواءهم . ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين). .

إن الحق في هذا القرآن لبين ؛ وإن حجة هذا الدين لواضحة ، فما يتخلف عنه أحد يعلمه إلا أن يكون الهوى هو الذي يصدّه . وإنهما لطريقان لا ثالث لهما:إما إخلاص للحق وخلوص من الهوى ، وعندئذ لا بد من الإيمان والتسليم . وإما ممارسة في الحق واتباع للهوى فهو التكذيب والشقاق . ولا حجة من غموض في العقيدة ، أو ضعف في الحجة ، أو نقص في الدليل . كما يدعي أصحاب الهوى المغرضون .

(فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم). .

وهكذا جزما وقطعا . كلمة من الله لا راد لها ولا معقب عليها . . إن الذين لا يستحيون لهذا الدين مغرضون غير معذورين . متجنون لا حجة لهم ولا معذرة , متبعون للهوى , معرضون عن الحق الواضح:

(ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟) . .

وهم في هذا ظالمون باغون:

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . .

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51)

إن هذا النص ليقطع الطريق على المعتذرين بأنهم لم يفهموا عن هذا القرآن , ولم يحيطوا علما بهذا الدين . فما هو إلا أن يصل إليهم , ويعرض عليهم , حتى تقوم الحجة , وينقطع الجدل , وتسقط المعذرة . فهو بذاته واضح واضح , لا يحيد عنه إلا ذو هوى يتبع هواه , ولا يكذب به إلا متجنن يظلم نفسه , ويظلم الحق البين ولا يستحق هدى الله . (إن الله لا يهدي القوم الظالمين).

ولقد انقطع عذرهم بوصول الحق إليهم , وعرضه عليهم , فلم يعد لهم من حجة ولا دليل . .

(ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون) . .

الدرس الثاني: 52 ثناء على مؤمنين صالحين

وحين تنتهي هذه الجولة , فيتبين منها التواؤم ومراؤهم , يأخذ معهم في جولة أخرى تعرض عليهم صورة من استقامة الطبع وخلوص النية . تتجلى هذه الصورة في فريق من الذين أوتوا الكتاب من قبلهم , وطريقة استقبالهم للقرآن المصدق لما بين أيديهم:

الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ; وإذا يتلى عليهم قالوا: آمنا به , إنه الحق من ربنا , إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا , ويدرأون بالحسنة السيئة , ومما رزقناهم ينفقون ; وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه , وقالوا: لنا أعمالنا , ولكم أعمالكم , سلام عليكم , لا نبتغي الجاهلين . .

قال سعيد بن جبير - رضي الله عنه - نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي , فلما قدموا على النبي [ص] قرأ عليهم: "(يس والقرآن الحكيم) حتى ختمها , فجعلوا يبكون وأسلموا ; ونزلت فيهم هذه الآية الأخرى: الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . . . إلخ " . . .

وروى محمد بن إسحاق في السيرة: " ثم قدم على رسول الله [ص] وهو بمكة عشرون رجلا أو قريبا من ذلك من النصارى , حين بلغهم خبره من الحبشة , فوجدوه في المسجد , فجلسوا إليه وكلموه , وسألوه , ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة , فلما فرغوا من مساءلة النبي [ص] عما أرادوا دعاهم إلى الله تعالى , وتلا عليهم القرآن . فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع , ثم استجابوا لله وأمنوا به

وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام , في نفر من قريش , فقالوا لهم: خبيكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل , فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال ؟ ما نعلم ركبا أحق منكم ! فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم , لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه , لم نال أنفسنا خيرا " .

قال: ويقال: إن النفر النصارى من أهل نجران . فالله أعلم أي ذلك كان . قال: ويقال والله أعلم: إن فيهم نزلت هذه الآيات: الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . . . إلخ .

قال: وسألت الزهري عن هذه الآيات فيمن نزلت ؟ قال: ما زلت أسمع من علمائنا أنهم نزلن في النجاشي وأصحابه - رضي الله عنه - والآيات اللاتي في سورة المائدة: ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا . . . إلى قوله - فاكثنا مع الشاهدين .

وأيا من كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات , فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع , يعلمونه ولا ينكرونه . كي يفهم وجهها لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن , وتطمئن إليه , وترى فيه الحق , وتعلم مطابقتها لما بين أيديها من الكتاب . ولا يصدها عنه صاد من هوى ولا من كبرياء ; وتحتمل في سبيل الحق

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (54)

الذي آمننت به ما يصيبها من أذى وتناول من الجهلاء , وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء .

(الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) . .

وهذه إحدى الآيات على صحته , فالكتاب كله من عند الله , فهو متطابق , ومن أوتي أوله عرف الحق في آخره , فاطمأن له , وآمن به , وعلم أنه من عند الله الذي نزل الكتاب كله .

(وإذا يتلى عليهم قالوا: آمنا به . إنه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين) . .

فهو من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى أكثر من تلاوته فيعرف الذين عرفوا الحق من قبل أنه من ذلك المعين , وأنه صادر من ذلك المصدر الواحد الذي لا يكذب . (إنه الحق من ربنا) . . (إنا كنا من قبله مسلمين) . والإسلام لله هو دين المؤمنين بكل دين .

هؤلاء الذين أسلموا لله من قبل , ثم صدقوا بالقرآن بمجرد سماعه:

أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا . .

الصبر على الإسلام الخالص . إسلام القلب والوجه . ومغالبة الهوى والشهوة . والاستقامة على الدين في الأولى والآخرة . أولئك يؤتون أجرهم مرتين , جزاء على ذلك الصبر , وهو عسير على النفوس , وأعسر الصبر ما كان على الهوى والشهوة والالتواء

والانحراف . وهؤلاء صبروا عليها جميعا , وصبروا على السخرية والإيذاء كما سبقت الرواية , وكما يقع دائما للمستقيمين على دينهم في المجتمعات المنحرفة الضالة الجاهلة في كل زمان ومكان:

وبدراون بالحسنة السيئة . .

وهذا هو الصبر كذلك . وهو أشد مؤنة من مجرد الصبر على الإيذاء والسخرية . إنه الاستعلاء على كبرياء النفس , ورغبتها في دفع السخرية , ورد الأذى , والشفاء من الغيظ , والبرد بالانتقام ! ثم درجة أخرى بعد ذلك كله . درجة السماحة الراضية . التي ترد القبيح بالجميل وتقابل الجاهل الساخر بالطمأنينة والهدوء وبالرحمة والإحسان ; وهو أفق من العظمة لا يبلغه إلا المؤمنون الذين يعاملون الله فيرضاهم ويرضونه , فيلقون ما يلقون من الناس راضين مطمئنين .

(ومما رزقناهم ينفقون). .

وكأنما أراد أن يذكر سماحة نفوسهم بالمال , عقب ذكره لسماحة نفوسهم بالإحسان . فهما من منبع واحد: منيع الاستعلاء على شهوة النفس , والاعتزاز بما هو أكبر من قيم الأرض . الأولى في النفس , والثانية في المال . وكثيرا ما يردان متلازمين في القرآن .

وصفة أخرى من صفة النفوس المؤمنة الصابرة على الإسلام الخالصة للعقيدة:

وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه , وقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين . .

واللغو فارغ الحديث , الذي لا طائل تحته , ولا حاصل وراءه . وهو الهذر الذي يقتل الوقت دون أن يضيف إلى القلب أو العقل زادا جديدا , ولا معرفة مفيدة . وهو البذاء من القول الذي يفسد الحس واللسان , سواء: أوجه إلى مخاطب أم حكى عن غائب .

والقلوب المؤمنة لا تلغو ذلك اللغو , ولا تستمع إلى ذاك الهذر , ولا تعنى بهذا البذاء . فهي مشغولة بتكاليف الإيمان , مرتفعة بأشواقه , متطهرة بنوره:

(وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه). .

وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي
الْجَاهِلِينَ (55) إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

ولكنهم لا يحتاجون ولا يغتاظون ولا يجارون أهل اللغو فيردون عليهم بمثله , ولا يدخلون معهم في جدل حوله , لأن الجدل مع أهل اللغو لغو ; إنما يتركونهم في موادة وسلام .

(وقالوا: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم). .

هكذا في أدب , وفي دعاء بالخير , وفي رغبة في الهداية . . مع عدم الرغبة في المشاركة:

(لا نتغي الجاهلين) .

ولا نريد أن ننفق معهم وقتنا الثمين , ولا أن نجاريهم في لغوهم أو نسمع إليه صامتين ! .

إنها صورة وضيئة للنفس المؤمنة المطمئنة إلى إيمانها . تفيض بالترفع عن اللغو . كما تفيض بالسماحة والود . وترسم لمن يريد أن يتأدب بأدب الله طريقه واضحا لا لبس فيه . فلا مشاركة للجهال , ولا مخاصمة لهم , ولا مودة عليهم , ولا ضيق بهم . إنما هو الترفع والسماحة وحب الخير حتى للجارم المسيء .

الدرس الثالث: 56 الهداية بين قدر الله واختيار الإنسان

هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب لم يزد الرسول [ص] في جهاده معهم للإيمان على أن يتلو عليهم القرآن . ووراءه من قومه من جهد جهده ليؤمن ; ومن أحب بكل نفسه أن يهديه للإسلام . فلم يقدر الله له ذلك لأمر يعلمه من نفسه . وما كان النبي [ص] ليهدي من يحب . إنما يهدي الله من يعلم من نفسه ما يستحق به الهدى ومن هو مستعد للإيمان . .

(إنك لا تهدي من أحببت , ولكن الله يهدي من يشاء . وهو أعلم بالمهتدين) . .

ورد في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم النبي [ص] وقد كان يحوطه وينصره , ويقف دونه في وجه قريش , ويحميه حتى يبلغ دعوته , ويحتمل في سبيل ذلك مقاطعة قريش له ولبنى هاشم وحصارهم في الشعب . ولكنه إنما يفعل ذلك كله حبا لابن أخيه , وحمية وإباء ونخوة . فلما حضرته الوفاة دعاه رسول الله [ص] إلى الإيمان والدخول في الإسلام , فلم يكتب الله له هذا , لما يعلمه سبحانه من أمره . .

قال الزهري: حدثني سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب بن حزن المخزومي - رضي الله عنه - قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله [ص] فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبدالله بن أمية ابن المغيرة . فقال رسول الله [ص]: " يا عم قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله " فقال أبو جهل وعبدالله بن أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ? فلم يزل رسول الله [ص] يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال: على ملة عبد المطلب . وأبى أن يقول: لا إله إلا الله . فقال رسول الله [ص]: " والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك " فأنزل الله تعالى: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى) . وأنزل في أبي طالب: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) . . [أخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري] .

ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: " لما حضرت وفاة أبي طالب أتاه رسول الله [ص] فقال: " يا عماه . قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة " فقال: لولا أن تعيرني بها قريش يقولون: ما حملة عليها إلا جزع الموت لأقبرت بها عينك . لا أقولها إلا لأقرب بها عينك " . ونزل قول الله تعالى: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) .

وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطِفُ مِنْ أََرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَىٰ إِلَيْهِ
ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ
بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (58)

وروى عن ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة أنها نزلت في أبي طالب .
وكان آخر ما قاله: هو على ملة عبد المطلب .

وإن الإنسان ليقف أمام هذا الخبر مأخوذا بصرامة هذا الدين واستقامته . فهذا عم
رسول الله [ص] وكافله وحاميه والذائد عنه , لا يكتب الله له الإيمان , على شدة حبه
لرسول الله [ص] وشدة حب رسول الله له أن يؤمن . ذلك أنه إنما قصد إلى عصبية
القرابة وحب الأبوة , ولم يقصد إلى العقيدة . وقد علم الله هذا منه , فلم يقدر له ما
كان يحبه له رسول الله [ص] ويرجوه . فأخرج هذا الأمر - أمر الهداية - من حصة
رسول الله [ص] وجعله خاصا بإرادته سبحانه وتقديره . وما على الرسول إلا البلاغ .
وما على الداعين بعده إلا النصيحة . والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن , والهدى
والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم للهدى أو للضلال .

الدرس الرابع: 57 - 61 أمن قريش في مكة ولفت نظرهم لمصارع السابقين

والآن يجيء السياق إلى قولتهم التي قالوها للرسول [ص] معتردين عن اتباعه مخافة
أن يفقدوا سلطانهم على قبائل العرب المجاورة , التي تعظم الكعبة , وتدين لسدنتها ,
وتعظم أصنامها , فتتخطفهم تلك القبائل , أو يتخطفهم أعداؤهم من وراء شبه الجزيرة
دون أن تساندتهم هذه القبائل . فبين لهم أين يكون الأمن وأين يكون الخوف من
واقعهم التاريخي , ومن حاضرهم الذي يشهدونه , بعدما أبان لهم في هذه السورة عن
ذلك في قصة موسى وفرعون . ويجول معهم جولة في مصارع الغابرين تكشف لهم
كذلك عن أسباب الهلاك الحقيقية ممثلة في البطر وقلة الشكر والتكذيب بالرسول
والإعراض عن الآيات . ثم جولة أخرى أبعد تكشف عن حقيقة القيم وتبدو فيها ضالة
الحياة الدنيا كلها ومتاعها إلى جوار ما عند الله .

(وقالوا: إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه
ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟ ولكن أكثرهم لا يعلمون . وكما أهلكنا من قرية بطرت
معيشتها , فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا , وكنا نحن الوارثين . وما كان
ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا , وما كنا مهلكي القرى إلا
وأهلها ظالمون . وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها , وما عند الله خير
وأبقى أفلا تعقلون ؟ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم
هو يوم القيامة من المحضرين ؟) .

إنها النظرة السطحية القريبة , والتصور الأرضي المحدود , هو الذي أوحى لقريش وهو
الذي يوحى للناس أن اتباع هدى الله يعرضهم للمخافة , ويغري بهم الأعداء , ويفقدتهم
العون والنصير , ويعود عليهم بالفقر والبوار:

(وقالوا: إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) .

فهم لا ينكرون أنه الهدى , ولكنهم يخافون أن يتخطفهم الناس . وهم ينسون الله ,
وينسون أنه وحده الحافظ , وأنه وحده الحامي ; وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن
تتخطفهم وهم في حمى الله ; وأن قوى الأرض كلها لا تملك أن تنصرهم إذا خذلهم الله .

ذلك أن الإيمان لم يخالط قلوبهم , ولو خالطها لتبدلت نظرهم للقوى , ولاختلف تقديرهم للأمور , ولعلموا أن الأمن لا يكون إلا في جوار الله , وأن الخوف لا يكون إلا في البعد عن هداه . وأن هذا الهدى موصول بالقوة موصول بالعزة ; وأن هذا ليس وهما وليس قولاً يقال لطمانه القلوب . إنما هو حقيقة عميقة منشؤها أن اتباع هدى الله معناه الاصطلاح مع ناموس الكون وقواه , والاستعانة بها وتسخيرها في الحياة . فإله خالق هذا الكون ومديره وفق الناموس الذي ارتضاه له . والذي يتبع هدى الله يستمد مما في هذا الكون من قوى غير محدودة , ويأوي إلى ركن شديد , في واقع الحياة .

إن هدى الله منهج حياة صحيحة . حياة واقعة في هذه الأرض . وحين يتحقق هذا المنهج تكون له السيادة الأرضية إلى جانب السعادة الأخروية وميزته أنه لا انفصال فيه بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ; ولا يقتضي إلغاء هذه الحياة الدنيا أو تعطيلها ليحقق أهداف الحياة الآخرة . إنما هو يربطهما معا برباط واحد: صلاح القلب وصلاح المجتمع وصلاح الحياة في هذه الأرض . ومن ثم يكون الطريق إلى الآخرة . فالدنيا مزرعة الآخرة , وعمارة جنة هذه الأرض وسيادتها وسيلة إلى عمارة جنة الآخرة والخلود فيها . بشرط اتباع هدى الله . والتوجه إليه بالعمل والتطلع إلى رضاه .

وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف ; بعد إعدادها لحمل هذه الأمانة . أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة .

وإن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه . يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم , ويشفقون من تألب الخصوم عليهم , ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية ! وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله [ص :] (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا). فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع قرن أو أقل من الزمان .

وقد رد الله عليهم في وقتها بما يكذب هذا العذر الموهوم . فمن الذي وهبهم الأمن ? ومن الذي جعل لهم البيت الحرام ? ومن الذي جعل القلوب تهوى إليهم تحمل من ثمرات الأرض جميعا ? تتجمع في الحرم من كل أرض , وقد تفرقت في مواطنها ومواسمها الكثيرة:

(أو لم يمكن لهم حرماً آمناً يجئ إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ؟) .

فما بالهم يخافون أن يتخطفهم الناس لو اتبعوا هدى الله , والله هو الذي مكن لهم هذا الحرم الأمن منذ أيام أبيهم إبراهيم ? أفمن أمنهم وهم عصاة , يدع الناس يتخطفونهم وهم تقاة ?!

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) . .

لا يعلمون أين يكون الأمن وأين تكون المخافة . ولا يعلمون أن مرد الأمر كله لله .

فأما إن أرادوا أن يتقوا المهالك حقا , وأن يأمنوا التخطف حقا , فها هي ذي علة الهلاك فليتقوها:

(وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا , وكنا نحن الوارثين) . .

إن بطر النعمة , وعدم الشكر عليها , هو سبب هلاك القرى . وقد أوتوا من نعمة الله ذلك الحرم الآمن ; فليحذروا إذن أن يبطروا , وألا يشكروا , فيحل بهم الهلاك كما حل بالقرى التي يرونها ويعرفونها , ويرون مساكن أهلها الدائرين خاوية خالية . (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا). وبقيت شاخصة تحدث عن مصارع أهلها , وتروي قصة البطر بالنعمة ; وقد فنى أهلها فلم يعقبوا أحدا , ولم يرثها بعدهم أحد (وكنا نحن الوارثين).

على أن الله لم يهلك تلك القرى المتبطرة إلا وقد أرسل في أمها رسولا . فتلك هي سنته التي كتبها على نفسه رحمة بعباده:

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا , وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون).

وحكمة إرسال الرسول في أم القرى - أي كبراهها أو عاصمتها - أن تكون مركزا تبلغ منه الرسالة إلى الأطراف فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد . وقد أرسل النبي [ص] في مكة أم القرى العربية . فهو

وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59) وَمَا أَوْتِيتُمْ مِّن شَيْءٍ فَمَتَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (60) أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنِ مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرْغُمُونَ (62)

ينذرهم عاقبة المكذبين قبلهم بعد ما جاءهم النذير: (وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون). . يكذبون بالآيات عن معرفة وعن يقين !

على أن متاع الحياة الدنيا بكامله , وعرض الحياة الدنيا جميعه , وما مكنهم الله فيه من الأرض , وما وهبهم إياه من الثمرات , وما يتسنى للبشر كلهم طوال هذه الحياة , إن هو إلا شيء ضئيل زهيد , إذا قيس بما عند الله:

(وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها . وما عند الله خير وأبقى . أفلا تعقلون ؟).

وهذا هو التقويم الأخير لا لما يخشون فوته من الأمن والأرض والمتاع وحده ; ولا لما يمن به الله عليهم من التمكين والثمار والأمان وحده ; ولا لما وهبه الله للقرى ثم أهلكها بالتبطر فيه وحده . إنما هو التقويم الأخير لكل ما في هذه الحياة الدنيا حتى لو ساغ وحتى لو كمل , وحتى لو دام , فلم يعقبه الهلاك والدمار . إنه كله (متاع الحياة الدنيا وزينتها). . (وما عند الله خير وأبقى) خير في طبيعته وأبقى في مدته .

(أفلا تعقلون ؟) . .

والمفاضلة بين هذا وذاك تحتاج إلى عقل يدرك طبيعة هذا وذاك . ومن ثم يجيء التعقيب في هذه الصيغة للتنبيه لإعمال العقل في الاختيار !

وفي نهاية هذه الجولة يعرض عليهم صفحتي الدنيا والآخرة , ولمن شاء أن يختار:

(أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين؟) .

فهذه صفحة من وعده الله وعدا حسنا فوجده في الآخرة حقا وهو لا بد لاقيه . وهذه صفحة من نال متاع الحياة الدنيا القصير الزهيد , ثم ها هو ذا في الآخرة محضر إحضارا للحساب . والتعبير يوحى بالإكراه (من المحضرين) الذين يجاء بهم مكرهين خائفين يودون أن لم يكونوا محضرين , لما ينتظرهم من وراء الحساب على ذلك المتاع القصير الزهيد !

وتلك نهاية المطاف في الرد على مقالتهم: (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) فحتى لو كان ذلك كذلك فهو خير من أن يكونوا في الآخرة من المحضرين ! فكيف واتباع هدى الله معه الأمن في الدنيا والتمكين , ومعه العطاء في الآخرة والأمان ؟ ألا إنه لا يترك هدى الله إذن إلا الغافلون الذين لا يدركون حقيقة القوى في هذا الكون . ولا يعرفون أين تكون المخافة وأين يكون الأمن . وإلا الخاسرون الذين لا يحسنون الاختيار لأنفسهم ولا يتقون البوار .

الدرس الخامس: 62 - 67 لقطات لأحوال الكفار يوم القيامة

وعندما يصل بهم إلى الشاطئ الآخر يجول بهم جولة أخرى في مشهد من مشاهد القيامة , يصور مغبة ما هم فيه من الشرك والغواية:

ويوم يناديهم فيقول: أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين حق عليهم القول: ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا , تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل: ادعوا شركاءكم . فدعوهم فلم يستجيبوا لهم , ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون .

ويوم يناديهم فيقول: ماذا أجبتكم المرسلين ؟ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون . فاما من تاب وعمل صالحا , فعسى أن يكون من المفلحين . .

والسؤال الأول للتوبيخ والتأنيب:

قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا هُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (64) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (66) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (67)

(أين شركائي الذين كنتم تزعمون؟) .

والله يعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء , وأن أتباعهم لا يعلمون عنهم شيئا , ولا يستطيعون إليهم سبيلا . ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد .

ومن ثم لا يجب المسؤولون عن السؤال , فليس المقصود به هو الجواب ! إنما يحاولون أن يتبرأوا من جريرة إغوائهم لمن وراءهم , وصددهم عن هدى الله , كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلفهم , فيقولون:

(ربنا هؤلاء الذين أغويننا أغويناهم كما غوينا ; تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون)!

ربنا إننا لم نغوهم قسرا , فما كان لنا من سلطان على قلوبهم ; إنما هم وقعوا في الغواية عن رضى منهم واختيار , كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار . (تبرأنا إليك) من جريمة إغوائهم . (ما كانوا إيانا يعبدون) إنما كانوا يعبدون أصناما وأوثانا وخلقاً من خلقك , ولم نجعل أنفسنا لهم آلهة , ولم يتوجهوا إلينا نحن بالعبادة !

عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التي حولوا الحديث عنها . مخزاة الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله:

(وقيل: ادعوا شركاءكم). .

ادعوهم ولا تهربوا من سيرتهم ! ادعوهم ليلبوكم وينقذوكم ! ادعوهم فهذا يومهم وهذه فائدتهم !

والبائسون يعرفون أن لا جدوى من دعائهم , ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين:

(فدعوهم فلم يستجيبوا لهم). .

ولم يكن منتظرا غير ذاك , ولكنه الإذلال والإعنات !

(ورأوا العذاب). .

رأوه في هذا الحوار . ورأوه ماثلا وراءه . فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب .

وهنا في اللحظة التي يصل فيها المشهد إلى ذروته يعرض عليهم الهدى الذي يرفضونه , وهو أمنية المتمني في ذلك الموقف المكروب: وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون:

(لو أنهم كانوا يهتدون). .

ثم يعود بهم إلى ذلك المشهد المكروب:

(وبوم يناديهم فيقول , ماذا أجبتكم المرسلين ?). .

وإن الله ليعلم ماذا أجابوا المرسلين . ولكنه كذلك سؤال التأنيب والترذيل . وإنهم ليواجهون السؤال بالذهول والصمت ذهول المكروب وصمت الذي لا يجد ما يقول:

(فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون).

والتعبير يلقي ظل العمى على المشهد والحركة . وكأنما الأنبياء عمياء لا تصل إليهم , وهم لا يعلمون شيئا عن أي شيء ! ولا يملكون سؤالا ولا جوابا . وهم في ذهولهم صامتون ساكتون !

(فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفlichen). .

وهذه هي الصفحة المقابلة . ففي الوقت الذي يبلغ الكرب ذروته بالمشركون , يتحدث
عمن تاب وآمن وعمل صالحا , وما ينتظره من الرجاء في الفلاح . ولمن شاء أن يختار .
وفي الوقت فسحة للاختيار !

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68)
وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى
وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (70)
الدرس السادس: 68 - 70 حكمة الله وإرادته وعلمه وشكره

ثم يرد أمرهم وأمر كل شيء إلى إرادة الله واختياره , فهو الذي يخلق كل شيء , ويعلم
كل شيء , وإليه مرد الأمر كله في الأولى والآخرة , وله الحمد في الأولى والآخرة وله
الحكم في الدنيا وله الرجعة والمآب . وما يملكون أن يختاروا لأنفسهم ولا لغيرهم ,
فالله يخلق ما يشاء ويختار:

(وربك يخلق ما يشاء ويختار , ما كان لهم الخيرة , سبحان الله وتعالى عما يشركون .
وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى
والآخرة , وله الحكم وإليه ترجعون).

وهذا التعقيب يجيء بعد حكاية قولهم: (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) وبعد
استعراض موقفهم يوم الحساب على الشرك والغواية . . يجيء لتقرير أنهم لا يملكون
الاختيار لأنفسهم فيختاروا الأمن أو المخافة ! ولتقرير وحدانية الله ورد الأمر كله إليه في
النهاية .

(وربك يخلق ما يشاء ويختار . ما كان لهم الخيرة) . .

إنها الحقيقة التي كثيرا ما ينساها الناس , أو ينسون بعض جوانبها . إن الله يخلق ما
يشاء ; لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئا ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئا , ولا أن
يعدل أو يبدل في خلقه شيئا . وإنه هو الذي يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لما يريد
من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات ; ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصا ولا
حادثا ولا حركة ولا قولا ولا فعلا . (ما كان لهم الخيرة) لا في شأن أنفسهم ولا في شأن
غيرهم , ومرد الأمر كله إلى الله في الصغير والكبير . .

هذه الحقيقة لو استقرت في الأخلاق والضمائر لما سخط الناس شيئا يحل بهم , ولا
استخفهم شيء ينالونه بأيديهم , ولا أحزنهم شيء يفوتهم أو يفلت منهم . فليسوا هم
الذين يختارون , إنما الله هو الذي يختار .

وليس معنى هذا أن يلغوا عقولهم وإرادتهم ونشاطهم . ولكن معناه أن يتقبلوا ما يقع -
بعد أن يبذلوا ما في وسعهم من التفكير والتدبير والاختيار - بالرضى والتسليم والقبول .
فإن عليهم ما في وسعهم والأمر بعد ذلك لله .

ولقد كان المشركون يشركون مع الله آلهة مدعاة ; والله وحده هو الخالق المختار لا
شريك له في خلقه ولا في اختياره . .

(سبحان الله وتعالى عما يشركون) . .

(وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون). .

فهو مجازيهم بما يعلم من أمرهم , مختار لهم ما هم له أهل , من هدى أو ضلال .

(وهو الله لا إله إلا هو). . فلا شريك له في خلق ولا اختيار .

(له الحمد في الأولى والآخرة). . على اختياره , وعلى نعمائه , وعلى حكمته وتدييره , وعلى عدله ورحمته , وهو وحده المختص بالحمد والثناء .

(وله الحكم). . يقضي في عباده بقضائه , لا راد له ولا مبدل لحكمه .

(وإليه ترجعون). . فيقضي بينكم قضاءه الأخير . .

وهكذا يطوفهم بالشعور بقدرة الله وتفرد إرادته في هذا الوجود واطلاعه على سرهم وعلايتهم فلا تخفى عليه منهم خافية ; وإليه مرجعهم فلا تشرذم منهم شاردة . فكيف يشركون بالله بعد هذا وهم في قبضته لا يفلتون ؟

الدرس السابع: 71 - 73 نعمة الله على الإنسان في تعاقب الليل والنهار

ثم يجول بهم جولة في مشاهد الكون الذي يعيشون فيه غافلين عن تدبير الله لهم , واختياره لحياتهم ومعاشهم ;

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَوْ لَيْلٍ تَنَظَّرُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِنَارٍ تَنَظَّرُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (73)

فيوقظ مشاعرهم لظاهرتين كونيتين عظيمتين . ظاهرتي الليل والنهار , وما وراءهما من أسرار الاختيار والشهادة بوحدانية الخالق المختار:

(قل: أرايتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟ قل: أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله , ولعلكم تشكرون). .

والناس لطول ما اعتادوا من كر الجديدين ينسون جدتهما المتكررة التي لا تبلى . ولا يروعهن مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلا . ولا يهزهم طلوع النهار وإقبال الليل إلا نادرا . ولا يتدبرون ما في تواليهما من رحمة بهم وإنقاذ من البلى والدمار , أو التعطل والبوار , أو الملل والهمود .

والقرآن الكريم يوقظهم من همود الإلف والعادة , ويلفتهم إلى تملي الكون من حولهم ومشاهده العظيمة ; وذلك حين يخيل إليهم استمرار الليل أبدا أو النهار أبدا , وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك . وما يشعر الإنسان بقيمة الشيء إلا حين يفقده أو يخاف عليه فقدان .

قل:أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة . ومن إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون . .

والناس يشتاقون إلى الصبح حين يطول بهم الليل قليلا في أيام الشتاء , ويحنون إلى ضياء الشمس حين تتوارى عنهم فترة وراء السحاب ! فكيف بهم لو فقدوا الضياء . ولو دام عليهم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ؟ ذلك على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار , لو لم يطلع عليها النهار !

قل:أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة . من إله غير الله يأتيكم ليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟ . .

والناس يستروحون الظلال حين يطول عليهم الهجير ساعات من النهار . ويحنون إلى الليل حين يطول النهار بعض ساعات في الصيف . ويجدون في ظلام الليل وسكونه الملجأ والقرار . والحياة كلها تحتاج إلى فترة الليل لتجدد ما تنفقه من الطاقة في نشاط النهار . فكيف بالناس لو ظل النهار سرمدا إلى يوم القيامة على فرض أنهم ظلوا أحياء . وإن الحياة كلها لمعرضة للتلف والبوار إن دام عليها النهار !

ألا إن كل شيء بقدر . وكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون بتدبير . وكل شيء عنده بمقدار:

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون). .

فالليل سكون وقرار , والنهار نشاط وعمل , والمتجه فيه إلى فضل الله . فما يعطي الناس شيئا إلا من فضله (ولعلكم تشكرون) ما يسره الله لكم من نعمة ومن رحمة , وما دبره لكم واختاره من توالي الليل والنهار , ومن كل سنن الحياة التي لم تختاروها , ولكن اختارها الله عن رحمة وعن علم وعن حكمة تغفلون عنها لطول الإلف والتكرار .

الدرس الثامن: 74 - 75 خسارة المشركين يوم القيامة

وبختم هذه الجولات بمشهد سريع من مشاهد القيامة يسألهم فيه سؤال استنكار عما زعموا من شركاء . ويقفهم

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَتَزَعَّتْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (75)
وجها لوجه أمام أباطيلهم المدعاة , حيث تتداوب وتتهاوى في موقف السؤال والحساب:

(ويوم يناديهم فيقول:أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا:هاتوا برهانكم . فعلموا أن الحق لله , وضل عنهم ما كانوا يفترون). .

وتصوير يوم النداء , وما فيه من سؤال عن الشركاء , قد سبق في جولة ماضية . فهو يعاد هنا لتوكيده وتثبيته بمناسبة المشهد الجديد الذي يعرض هنا . مشهد نزع شهيد من كل أمة . وهو نبيها الذي يشهد بما أجابته وما استقبلت به رسالته . والنزع حركة شديدة , والمقصود إقامة وإبرازه وإفراده من بينهم ليشهده قومه جميعا وليشهد قومه جميعا .

وفي مواجهة هذا الشاهد يطلب منهم برهانهم على ما اعتقدوا وما فعلوا . وليس لديهم برهان ; ولا سبيل لهم يومئذ إلى المكابرة:

(فعلموا أن الحق لله). . الحق كله خالصا لا شبهة فيه ولا ريبة .

(وضل عنهم ما كانوا يفترون). . من شرك ومن شركاء , فما هو بواجدهم وما هم بواجديه ! في وقت حاجتهم إليه في موقف الجدل والبرهان !

بهذا تنتهي التعقيبات على قصة موسى وفرعون . وقد طوفت بالنفوس والقلوب في تلك الآفاق والعوالم والأحداث والمشاهد وردتها من الدنيا إلى الآخرة , ومن الآخرة إلى الدنيا . وطوقت بها في جنبات الكون وفي أغوار النفس , وفي مصارع الغابرين , وفي سنن الكون والحياة . متناسقة كلها مع محور السورة الأصيل . ومع القصتين الرئيسيتين في السورة: قصة موسى وفرعون . وقصة قارون . وقد مضت الأولى . فلنستعرض الثانية بعد تلك التعقيبات وهذه الجولات .

الوحدة الثالثة: 76 - 84 الموضوع: قصة قارون وتعقيب عليها

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)

مقدمة الوحدة

مضت مطالع السورة بقصة موسى وفرعون , وقد عرضت فيها قوة السلطان والحكم , وكيف باءت بالبوار مع البغي والظلم , والكفران بالله , والبعد عن هداة . والآن تجيء قصة قارون لتعرض سلطان المال والعلم , وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر , والاستكبار على الخلق وجود نعمة الخالق . وتقرر حقيقة القيم , فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح ; مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد .

ولا يحدد القرآن زمان القصة ولا مكانها ; إنما يكتفي بأن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم . فهل وقعت هذه القصة وبنو إسرائيل وموسى في مصر قبل الخروج ؟ أم وقعت بعد الخروج في حياة موسى ؟ أم وقعت في بني إسرائيل من بعد موسى ؟ هناك روايات تقول: إنه كان ابن عم لموسى - عليه السلام - وأن الحادث وقع في زمان موسى . ويزيد بعضها فيذكر أن قارون أذى موسى , ودبر له مكيدة ليلصق به تهمة الفاحشة بامرأة معينة في مقابل رشوة من المال , فبرأ الله موسى وأذن له في قارون , فخسفت به الأرض . .

ولسنا في حاجة إلى كل هذه الروايات , ولا إلى تحديد الزمان والمكان . فالقصة كما وردت في القرآن كافية لأداء الغرض منها في سياق السورة , ولتقرير القيم والقواعد التي جاءت لتقريرها . ولو كان تحديد زمانها ومكانها وملابساتها يزيد في دلالتها شيئا ما ترك تحديدها . فلنستعرضها إذن في صورتها القرآنية , بعيدة عن تلك الروايات التي لا طائل وراءها . .

الدرس الأول: 76 - 78 طغيان قارون واعتداؤه بماله

(إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ; وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة . إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك , ولا تبغ الفساد في الأرض , إن الله لا يحب المفسدين . قال: إنما أوتيته على علم عندي) .

هكذا تبدأ القصة فتعين اسم بطلها "قارون" وتحدد قومه "قوم موسى" وتقرر مسلكه مع قومه , وهو مسلك البغي (فبغى عليهم) وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء:
(وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة) .

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبها في النفوس . لقد كان قارون من قوم موسى , فأتاه الله ما لا كثيرا , يصور كثرته بأنه كنوز - والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول - وبأن مفاتيح هذه الكنوز تعيى المجموعة من أقوياء الرجال . . من أجل هذا بغى قارون على قومه . ولا يذكر قيم كان البغي , ليدعه مجهلا يشمل شتى الصور . فربما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم - كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان - وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال . حق الفقراء في أموال الأغنياء , كي لا يكون دولة بين الأغنياء وحدهم ومن حولهم محاويج إلى شيء منه , فتفسد القلوب , وتفسد الحياة . وربما بغى عليهم بهذه وبغيرها من الأسباب .

وعلى أية حال فقد وجد من قومه من يحاول رده عن هذا البغي , ورجعه إلى النهج القويم , الذي يرضاه الله في التصرف بهذا الثراء ; وهو نهج لا يحرم الأثرياء ثراءهم ; ولا يحرمهم المتاع المعتدل بما وهبهم الله من مال ; ولكنه يفرض عليهم القصد والاعتدال ; وقبل ذلك يفرض عليهم مراقبة الله الذي أنعم عليهم , ومراعاة الآخرة وما فيها من حساب:

إذ قال له قومه: لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة , ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك , ولا تبغ الفساد في الأرض . إن الله لا يحب المفسدين .

وفي هذا القول جماع ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص تفرد به بين سائر مناهج الحياة .

(لا تفرح) . . فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال , والاحتفال بالثراء , والتعلق بالكنوز , والابتهاج بالملك والاستحواذ . . لا تفرح فرح البطر الذي ينسى المنعم بالمال ; وينسى نعمته , وما يجب لها من الحمد والشكران . لا تفرح فرح الذي يستخفه المال , فيشغل به قلبه , ويطير له لبه , ويتناول به على العباد . .

(إن الله لا يحب الفرحين) . . فهم يردونه بذلك إلى الله , الذي لا يحب الفرحين الماخوذين بالمال , المتباهين , المتطاولين بسلطانه على الناس .

(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة , ولا تنس نصيبك من الدنيا) . . وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم . المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة . ولا يحرمه أن يأخذ

بقسط من المتاع في هذه الحياة . بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا , كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها .

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس ; وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها , فتنمو الحياة وتتجدد , وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض . ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة , فلا ينحرفون عن طريقها , ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها . والمتاع في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم , وتقبل لعطاياه , وانتفاع بها . فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى .

وهكذا يحقق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان , ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة , التي لا حرمان فيها , ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة .

(وأحسن كما أحسن الله إليك) . . فهذا المال هبة من الله وإحسان . فليقابل بالإحسان فيه . إحسان التقبل وإحسان التصرف , والإحسان به إلى الخلق , وإحسان الشعور بالنعمة , وإحسان الشكران .

(ولا تبغ الفساد في الأرض) . . الفساد بالبغي والظلم . والفساد بالمتاع المطلق من مراقبة الله ومراعاة الآخرة . والفساد بملء صدور الناس بالحرص والحسد والبغضاء والفساد بإنفاق المال في غير وجه أو إمساكه عن وجهه على كل حال .

(إن الله لا يحب المفسدين) . . كما أنه لا يحب الفرحين .

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُئُوهُمْ الْمُجْرِمُونَ (78)

كذلك قال له قومه: فكان رده جملة واحدة , تحمل شتى معاني الفساد والإفساد:

(قال: إنما أوتيته على علم عندي)!

إنما أوتيت هذا المال استحقاقا على علمي الذي طوع لي جمعه وتحصيله . فما لكم تملون علي طريقة خاصة في التصرف فيه , وتتحكمون في ملكيتي الخاصة , وأنا إنما حصلت هذا المال بجهدي الخاص , واستحقاقته بعلمي الخاص ؟

إنها قولة المغرور المطموس الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها , ويفتنه المال ويعميه الثراء .

وهو نموذج مكرر في البشرية . فكم من الناس يظن أن علمه وكده هما وحدهما سبب غناه . ومن ثم فهو غير مسؤول عما ينفق وما يمسك , غير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح , غير حاسب لله حسابا , ولا ناظر إلى غضبه ورضاه !

والإسلام يعترف بالملكية الفردية , ويقدر الجهد الفردي الذي بذل في تحصيلها من وجوه الحلال التي يشرعها ; ولا يهون من شأن الجهد الفردي أو يلغيه . ولكنه في الوقت ذاته يفرض منهاجا معيناً للتصرف في الملكية الفردية - كما يفرض منهاجا لتحصيلها

وتنميتها - وهو منهج متوازن متعادل , لا يحرم الفرد ثمرة جهده , ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف ولا في إمساكه حتى التقدير ; ويفرض للجماعة حقوقها في هذا المال , ورقابتها على طرق تحصيله , وطرق تنميته , وطرق إنفاقه والاستمتاع به . وهو منهج خاص واضح الملامح متميز السمات .

ولكن قارون لم يستمع لنداء قومه , ولم يشعر بنعمة ربه , ولم يخضع لمنهجه القويم . وأعرض عن هذا كله في استكبار لئيم وفي بطر ذميم .

ومن ثم جاءه التهديد قبل تمام الآية , ردا على قولته الفاجرة المغرورة:

(أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون).

فإن كان ذا قوة وذا مال , فقد أهلك الله من قبله أجيالا كانت أشد منه قوة وأكثر مالا . وكان عليه أن يعلم هذا . فهذا هو العلم المنجي . فليعلم . وليعلم أنه هو وأمثاله من المجرمين أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم . فليسوا هم الحكم ولا الأشهاد !

(ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون)!

الدرس الثاني: 79 - 80 الناس فريقان أمام فتنة قارون

ذلك كان المشهد الأول من مشاهد القصة , يتجلى فيه البغي والتطاول , والإعراض عن النصيحة , والتعالي على العظة , والإصرار على الفساد , والاعتزاز بالمال , والبطر الذي يقعد بالنفس عن الشكران .

ثم يجيء المشهد الثاني حين يخرج قارون بزيئته على قومه , فتطير لها قلوب فريق منهم , وتتهاوى لها نفوسهم , ويتمنون لأنفسهم مثل ما أوتي قارون , وبحسون أنه أوتي حطا عظيما يتشبهه المحرومون . ذلك على حين يستيقظ الإيمان في قلوب فريق منهم فيعتزون به على فتنة المال وزينة قارون , ويذكرون إخوانهم المبهوتين المأخوذتين , في ثقة وفي يقين:

فخرج على قومه في زينتته قال الذين يريدون الحياة الدنيا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون . إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم: ويلكم ! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا , ولا يلقاها إلا الصابرون .

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَبِكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82)

وهكذا وقفت طائفة منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهوى المتهافت ، ووقفت طائفة أخرى تستعلي على هذا كله بقيمة الإيمان ، والرجاء فيما عند الله ، والاعتزاز بثواب الله . والتقت قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان:

قال الذين يريدون الحياة الدنيا:يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون . إنه لذو حظ عظيم . .

وفي كل زمان ومكان تستهوي زينة الأرض بعض القلوب ، وتبهر الذين يريدون الحياة الدنيا ، ولا يتطلعون إلى ما هو أعلى وأكرم منها ؛ فلا يسألون بأي ثمن يشتري صاحب الزينة زينته ؟ ولا بأي الوسائل نال ما نال من عرض الحياة ؟ من مال أو منصب أو جاه . ومن ثم تنهافت نفوسهم وتتهاوى ، كما تنهافت الذباب على الحلوى وتهاوى ! ويسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع ، غير ناظرين إلى الثمن الباهظ الذي أدوه ، ولا إلى الطريق الدنس الذي خاضوه ، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها .

فأما المتصلون بالله فلهم ميزان آخر يقيم الحياة ، وفي نفوسهم قيم أخرى غير قيم المال والزينة والمتاع . وهم أعلى نفسا ، وأكبر قلبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قيم الأرض جميعا . ولهم من استعلائهم بالله عاصم من التخاذل أمام جاه العباد . وهؤلاء هم (الذين أوتوا العلم). العلم الصحيح الذي يقومون به الحياة حق التقويم:

(وقال الذين أوتوا العلم:ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، ولا يلقاها إلا الصابرون).

(

ثواب الله خير من هذه الزينة ، وما عند الله خير مما عند قارون . والشعور على هذا النحو درجة رفيعة لا يلقاها إلا الصابرون . . الصابرون على معايير الناس ومقاييسهم . الصابرون على فتنة الحياة وإغرائها . الصابرون على الحرمان مما يتشناه الكثيرون . وعندما يعلم الله منهم الصبر كذلك يرفعهم إلى تلك الدرجة . درجة الاستعلاء على كل ما في الأرض ، والتطلع إلى ثواب الله في رضى وثقة واطمئنان .

الدرس الثالث: 81 - 82 الخسف بقارون وماله

وعندما تبلغ فتنة الزينة ذروتها ، وتنهافت أمامها النفوس وتتهاوى ، تتدخل يد القدرة لتضع حدا للفتنة ، وترحم الناس الضعاف من إغرائها ، وتحطم الغرور والكبرياء تحطما . ويجيء المشهد الثالث حاسما فاصلا:

(فخسفنا به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ، وما كان من المنتصرين).

هكذا في جملة قصيرة ، وفي لمحة خاطفة: (فخسفنا به وبداره الأرض)فابتلعت وابتعلت داره ، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا . وذهب ضعيفا عاجزا ، لا ينصره أحد ، ولا ينتصر بجاه أو مال .

وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس ؛ وردتهم الضربة القاضية إلى الله ؛ وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال . وكان هذا المشهد الأخير:

وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون:وي ! كأن الله يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر . لولا أن من الله علينا لخسف بنا . وي ! كأنه لا يفلح الكافرون . .

وقفوا يحمدون الله أن لم يستجب لهم ما تمنوه بالأمس , ولم يؤتهم ما آتى قارون . وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة . وصحوا إلى أن الثراء ليس آية على رضى الله . فهو يوسع الرزق على من يشاء من عباده وبضيقه لأسباب أخرى غير الرضى والغضب . ولو كان دليل رضاه ما أخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف . إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء . وعلموا أن الكافرين لا يفلحون . وقارون لم يجهر بكلمة الكفر

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83)
مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84)

ولكن اغتراره بالمال , ونسبته إلى ما عنده من العلم جعلهم يسلكونه في عداد الكافرين , ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك للكافرين .

وبسدل الستار على هذا المشهد . وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة السافرة , وقد رجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان . . ثم يأخذ في التعقيب في أنسب أوان:

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا . والعاقبة للمتقين).

تلك الآخرة التي تحدث عنها الذين أوتوا العلم . العلم الحق الذي يقوم الأشياء قيمتها الحقيقية . تلك الدار الآخرة العالية الرتبة البعيدة الآفاق . تلك الدار الآخرة (نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا). . فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم لأنفسهم ; ولا يهجم في قلوبهم الاعتزاز بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها . إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملاها الشعور بالله , ومنهجه في الحياة . أولئك الذين لا يقيمون لهذه الأرض وأشياءها وأعراضها وقيمها وموازينها حسابا . ولا ييغون فيها كذلك فسادا . أولئك هم الذين جعل الله لهم الدار الآخرة . تلك الدار العالية السامية .

(والعاقبة للمتقين)الذين يخشون الله ويراقبونه ويتخرجون من غضبه ويتغنون رضاه .

وفي تلك الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه . الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها . والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسيرا:

(من جاء بالحسنة فله خير منها . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون).

الوحدة الخامسة: 85 - 88 الموضوع توجيهات للرسول والدعاة من بعده

والآن وقد انتهى القصص , وانتهت التعقيبات المباشرة على ذلك القصص . الآن يتوجه الخطاب إلى رسول الله [ص] ومن خلفه القلة المسلمة التي كانت يومها بمكة . يتوجه الخطاب إلى رسول الله [ص] وهو مخرج من بلده , مطارداً من قومه , وهو في طريقه إلى المدينة لم يبلغها بعد , فقد كان بالجحفة قريبا من مكة , قريبا من الخطر ,

يتعلق قلبه وبصره ببلده الذي يحبه , والذي يعز عليه فراقه , لولا أن دعوته أعز عليه من بلده وموطن صباه , ومهد ذكرياته , ومقر أهله . يتوجه الخطاب إلى رسول الله [ص]

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (85) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (86)
وهو في موقفه ذاك:

(إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد). .

فما هو بتاركك للمشركين , وقد فرض عليك القرآن وكلفك الدعوة . ما هو بتاركك للمشركين يخرجونك من بلدك الحبيب إليك , ويستبدون بك وبدعوتك , ويفتنون المؤمنين من حولك . إنا فرض عليك القرآن لينصرك به في الموعد الذي قدره , وفي الوقت الذي فرضه ; وإنك اليوم لمخرج منه مطاردا , ولكنك غدا منصور إليه عائد .

وهكذا شاءت حكمة الله أن ينزل على عبده هذا الوعد الأكيد في ذلك الظرف المكروب , ليمضي [ص] في طريقه آمنا واثقا , مطمئنا إلى وعد الله الذي يعلم صدقه , ولا يستريب لحظة فيه .

وإن وعد الله لقائم لكل السالكين في الطريق ; وإنه ما من أحد يؤذى في سبيل الله , فيصبر ويستيقن إلا نصره الله في وجه الطغيان في النهاية , وتولى عنه المعركة حين يبذل ما في وسعه , ويخلي عاتقه , ويؤدي واجبه .

(إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد). ولقد رد موسى من قبل إلى الأرض التي خرج منها هاربا مطاردا . رده فأنقذ به المستضعفين من قومه , ودمر به فرعون وملأه , وكانت العاقبة للمهتدين . فامض إذن في طريقك , ودع أمر الحكم فيما بينك وبين قومك لله الذي فرض عليك القرآن:

(قل:ربي أعلم من جاء بالهدى , ومن هو في ضلال مبين). .

ودع الأمر لله يجازي المهتدين والضالين .

وما كان فرض القرآن عليك إلا نعمة ورحمة ; وما كان يجول في خاطرك أن تكون أنت المختار لتلقي هذه الأمانة . وإنه لمقام عظيم ما كنت تتطلع إليه قبل أن توهبه:

(وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك). .

وهو تقرير قاطع عن عدم تطلع الرسول [ص] إلى الرسالة ; إنما هو اختيار الله . والله يخلق ما يشاء ويختار , فذلك الأفق أعلى من أن يفكر فيه بشر قبل أن يختاره الله له ويؤهله ليرقاه . وهو رحمة من الله بنبيه وبالبشرية التي اختاره لهدايتها بهذه الرسالة . رحمة توهب للمختارين لا للمتطلعين . ولقد كان من حوله كثيرون في العرب وفي بني إسرائيل يتطلعون إلى الرسالة المنتظرة في آخر الزمان . ولكن الله - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - وقد اختار لها من لم يتطلع إليها ولم يرجها , من دون أولئك الطامعين المتطلعين , حينما علم منه الاستعداد لتلقي ذلك الفيض العظيم .

ومن ثم يأمره ربه - بما أنعم عليه بهذا الكتاب - ألا يكون ظهيرا للكافرين ; ويحذره أن يصدوه عن آيات الله ويمحض له عقيدة التوحيد خالصة في وجه الشرك والمشركين .

(فلا تكونن ظهيرا للكافرين ; ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ; وادع إلى ربك , ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر , لا إله إلا هو . كل شيء هالك إلا وجهه . له الحكم وإليه ترجعون) .

إنه الإيقاع الأخير في السورة , يفصل ما بين رسول الله [ص] وطريقه وما بين الكفر والشرك وطريقه . وبين لاتباع رسول الله [ص] طريقهم إلى يوم القيامة . . الإيقاع الأخير ورسول الله [ص] في طريق هجرته الفاصلة بين عهدين متميزين من عهود التاريخ .

(فلا تكونن ظهيرا للكافرين) . . فما يمكن أن يكون هناك تناصر أو تعاون بين المؤمنين والكافرين . وطريقاهما

وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (87) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (88)

مختلفان , ومنهماهما مختلفان . أولئك حزب الله , وهؤلاء حزب الشيطان . فعلام يتعاونان ? وفيم يتعاونان ?

(ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك) . . فطريق الكفار دائما أن يصدوا أصحاب الدعوة عن دعوتهم بشتى الطرق والوسائل . وطريق المؤمنين أن يمضوا في طريقهم لا يلوهم عنها المعوقون , ولا يصدهم عنها أعداؤهم . وبين أيديهم آيات الله , وهم عليها مؤتمنون .

(وادع إلى ربك) . . دعوة خالصة واضحة لا لبس فيها ولا غموض . دعوة إلى الله لا لقومية ولا لعصبية , ولا لأرض ولا لراية . ولا لمصلحة ولا لمغرم , ولا لتمليق هوى , ولا لتحقيق شهوة . ومن شاء أن يتبع هذه الدعوة على تجردها فليتبعتها , ومن أراد غيرها معها فليس هذا هو الطريق .

(ولا تكونن من المشركين . ولا تدع مع الله إلها آخر) يؤكد هذه القاعدة مرتين بالنهي عن الشرك والنهي عن اتخاذ إله آخر مع الله . ذلك أنها مفرق الطريق في العقيدة بين النصاعة والغموض . وعلى هذه القاعدة يقوم بناء هذه العقيدة كلها , وآدابها وأخلاقيها وتكالييفها وتشريعاتها جميعا . وهي المحور الذي يلتف عليه كل توجيه وكل تشريع . ومن ثم هي تذكر قبل كل توجيه وقبل كل تشريع .

ثم يمضي في التوكيد والتقرير:

(لا إله إلا هو) . . (كل شيء هالك إلا وجهه) . . (له الحكم) . . (وإليه ترجعون) . .

(لا إله إلا هو) . . فلا إسلام إلا لله , ولا عبودية - إلا له , ولا قوة إلا قوته , ولا ملاذ إلا حماه .

(كل شيء هالك إلا وجهه). . فكل شيء زائل . وكل شيء ذاهب . المال والجاه . والسلطان والقوة . والحياة والمتاع . وهذه الأرض ومن عليها . وتلك السماوات وما فيها ومن فيها . وهذا الكون كله ما نعلمه منه وما نجهله . . كله . كله . هالك فلا يبقى إلا وجه الله الباقي . متفردا بالبقاء .

له الحكم . . يقضي بما يشاء ويحكم كما يشاء , لا يشركه في حكمه أحد , ولا يرد قضاءه أحد , ولا يقف لأمره أمر . وما يشاؤه فهو الكائن دون سواه .

(وإليه ترجعون). . فلا مناص من حكمه , ولا مفر من قضائه , ولا ملجأ دونه ولا مهرب .

وهكذا تختتم السورة التي تتجلى فيها يد القدرة سافرة , تحرس الدعوة إلى الله وتحميها , وتدمر القوى الطاغية والباغية وتمحوها . تختتم بتقرير قاعدة الدعوة: وحدانية الله سبحانه وتفرده بالألوهية والبقاء والحكم والقضاء . ليمضي أصحاب الدعوات في طريقهم على هدى , وعلى ثقة , وعلى طمأنينة , وفي يقين . .